التربية في القرآن الكريم

ملامح تربوية لبعض آيات القرآن الكريم

الجزء الثالث

د. عبدالرحمن بن سعيد الحازمي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التربية في القرآن الكريم

ملامح تربوية لبعض آيات القرآن الكريم

(الجزء الثالث)

إعداد

د.عبد الرحمن بن سعيد الحازمي

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب هدى للناس، وجعل فيه شفاء لما في الصدور، ونورًا للسالكين، وصلاةً وسلامًا على من بعثه الله معلمًا ومربيًا ومزكيًا، محمدِ بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه إلى يوم الدين، أما بعد:

فما من كتابٍ وُهِب للبشرية أصفى نورًا، وأصدق هديًا، وأقوم سبيلًا من القرآن الكريم، الذي لم يكن كتاب عبادة فحسب، بل كان كتاب تربية شاملة، ترسم منهجه آياتُه، وتُؤسِّس مبادئه كلماته، فيبني الإنسان روحًا وعقلاً، ويزكيه وجدانًا وسلوكًا، ويقوّمه فكرًا وخُلقًا.

لقد عُني القرآن بالتربية على نحوٍ لا مثيل له، فربّى الفرد في ذاته، والمجتمع في كيانه، والإنسانية في مسيرتها، فتراه يغرس القيم، ويصوّب السلوك، ويعالج الانحراف، ويهذب النفوس، ويربي على التوحيد، والصدق، والصبر، والرحمة، والعدل، وكل فضيلة من شأنها أن تُنشئ الإنسان المتوازن في ذاته، والمصلح في مجتمعه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبعون الله تعالى وتوفيقه، جاء هذا الكتاب، وهو الجزء الثالث من سلسلة: "**التربية في القرآن الكريم .. ملامح تربوية لبعض آيات القرآن الكريم**"، ليرصد بعض الملامح التربوية المستنبطة من ثلاثٍ وعشرين آية من كتاب الله العظيم، حوت -بفضل الله - فوائد تربوية متنوعة.

ولا أدّعي الكمال في هذا العمل؛ فهو جهد بشري لا يسلم من القصور، والقرآن بحرٌ لا تُدرك أعماقه، لكنها محاولة متواضعة للاقتراب من بعض لآلئه، وإبراز قبسات من هديه التربوي، رجاء أن تكون لبنة في بناء الفهم القرآني التربوي.

واللهَ أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لعباده، مباركًا في أثره، إنه سميع مجيب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١)

تتحقق محبة اللّه تعالى ومحبة رسوله صلى اللّه عليه وسلم بالاتباع الصادق لا الابتداع

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تتحقق محبة اللّه تعالى ومحبة رسوله صلى اللّه عليه وسلم بالاتباع الصادق لا الابتداع

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(١).

تمهيد:

تُعدّ هذه الآية الكريمة بمثابة "وثيقة المحبة"، إذ تُبيِّن بجلاءٍ لا لبس فيه أن محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لا تَثبت بادعاءٍ مجرد، بل تتحقق بالاتباع الصادق لا الابتداع، ولهذا سماها بعض أهل العلم بـ"آية المحنة"، لأنها تمتحن صدق دعوى المحبة، كما قال الحسن البصري رحمه الله: "زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية"(٢). وهي كذلك، ميزان دقيق توزن به أقوال العباد وأفعالهم، كما قال السعدي رحمه الله عند تفسير الآية الموضح أدناه: "بهذه الآية يوزن جميع الخلق"(٣). وعموماً؛ فإن الآية

---

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ١٢٨).

تحمل ملامح تربوية عظيمة، ومجالاتها تمتد لتشمل جوانب الإيمان والسلوك والاتباع، ولعظم أهميتها ومكانتها سأجتهد قدر علمي المحدود باستنباط بعض الملامح التربوية التي حوتها، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وأسأل الله التوفيق والسداد، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال ابن كثير رحمه الله: "هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله"(٤).

وقال السعدي رحمه الله: "وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾، أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦).

الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص"(٥).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: تُبرز هذه الآية الكريمة محبةَ الله تعالى لعباده المؤمنين، وهي من الصفات التي أثبتها أهل السنة والجماعة لله عز وجل، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تشبيه ولا تعطيل، كما هو الحال في سائر صفات الله تعالى، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾(٦).

وننتقل لبيان هذا الموضوع بما ذُكر عند ابن تيمية رحمه الله إذ قال: "فإن

---

(٥) تفسير السعدي (ص: ١٢٨).

(٦) الشورى: ١١.

الكتاب والسنة وإجماع المسلمين: أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له؛ كقوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾[٧]، وقوله: ﴿**يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ**﴾[٨] وقوله: ﴿**أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾[٩]، وقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ**﴾[١٠]، ﴿**يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**﴾[١١]، ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ**﴾[١٢]، ﴿**يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ**﴾[١٣]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"[١٤]. وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله

---

(٧) البقرة: ١٦٥.

(٨) البقرة: ٥٤.

(٩) التوبة: ٢٤.

(١٠) التوبة: ٤.

(١١) البقرة: ١٩٥.

(١٢) البقرة: ٢٢٢.

(١٣) المائدة: ٤٢.

(١٤) صحيح مسلم، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم: ٤٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام"(١٥).

ثانياً: إن محبة الله تعالى متنوعة وشاملة للأعمال والعاملين والأشخاص والأمكنة، وسأورد توضيحاً حول ذلك اختصرته لابن عثيمين رحمه الله؛ إذ قال: "إن محبة الله سبحانه وتعالى متنوعة، فهو جل وعلا يحب الأعمال والعاملين والأشخاص والأمكنة، وهو أيضًا يُحب ويُحَب، كما قال تعالى: ﴿**قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ**﴾(١٦)، فكلما كان العبد أكثر اتباعًا للنبي صلى الله عليه وسلم كان أحب إلى الله، ومن أمثلة محبته لأشخاص معينين ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في علي بن أبي طالب يوم خيبر: "يُحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله"، وكذا في الرجل الذي كان يختم بـ ﴿**قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾، فقال صلى الله عليه وسلم: "أخبروه أن الله يحبه"، وقد تتعلق محبة الله بصفات في أناس غير معينين، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ**﴾(١٧) ﴿**يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**﴾(١٨) ﴿**يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ**

---

(١٥) الفتاوى، (٢/ ٣٥٤).

(١٦) آل عمران: ٣١.

(١٧) التوبة: ٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾(١٩) كما تتعلق محبته بأماكن، كقوله صلى الله عليه وسلم: "أحب البقاع إلى الله مساجدها"، وقوله عن مكة: "أحب بلاد الله إلى الله"، فالله تعالى ودود، أي محبٌ ومحبوب، كما قال سبحانه: ﴿**وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ**﴾(٢٠)".

ثالثاً: إن محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه يجب أن تكون في قلب المؤمن فوق كل محبة، مهما كانت قرابة النسب أو المصالح الدنيوية، فليست محبة الوالدين، ولا الأولاد، ولا الأزواج، ولا الأموال والمساكن والتجارات، مقدَّمة على محبة الله ورسوله، بل لا يُعدّ العبد صادقًا في إيمانه إلا إذا كانت محبة الله ورسوله هي الغالبة والمقدَّمة في قلبه على كل ما سواهما. وقد نبّه إلى هذا المعنى ابن رجب الحنبلي رحمه الله، فقال: "إن الله تعالى توعد من قدم محبة شيء من المخلوقين على محبته ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبة الجهاد في سبيله في قوله تعالى: ﴿**قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**

---

(١٨) البقرة: ١٩٥.

(١٩) الصف: ٤.

(٢٠) البروج: ١٤. تفسير ابن عثيمين جزء عم، سورة البروج، (ص: ١٣٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾[٢١]. وأكد هذا المعنى أيضًا السعدي رحمه الله، حيث قال: "وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله"[٢٢].

والخلاصة: أن هذه الآية تُنقِّي مشاعر المحبة في قلب المسلم من كل شائبة تعارض مقتضى التوحيد الخالص، لتكون محبته لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم هي المحور الذي تدور حوله سائر المحابّ، وتُوزَن به جميع العلاقات.

رابعاً: من تمام الإيمان وكماله أن يُقدِّم المسلم محبته للنبي محمد صلى الله عليه وسلم على محبته لولده ووالده وسائر الناس، فقد قررت السنة النبوية هذا الأصل العظيم، وجعلته شرطًا في اكتمال الإيمان، قال صلى الله عليه وسلم: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ

---

(٢١) التوبة: ٢٤. تفسير ابن رجب (٢/٢١٦).

(٢٢) تفسير السعدي (ص: ٣٣٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَجْمَعِينَ"(٢٣). ولم تقتصر السنة على بيان وجوب هذه المحبة، بل أوضحت أثرها في القلب؛ إذ تجعل صاحبها يذوق حلاوة الإيمان، ويعيش لذته الروحية، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النار"(٢٤).

خامساً: في موقف تربوي عظيم، علَّم النبي صلى الله عليه وسلم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، درسًا بليغًا في معنى كمال الإيمان، وهو في الوقت ذاته توجيه شامل للأمة كلها، فقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإيمان لا يكتمل حتى تكون محبته أعظم من محبة الإنسان لنفسه، ويتضح ذلك جلياً في الحوار التربوي الذي دار بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين عمر رضي الله عنه، حيث قال عمر رضي الله عنه: يَا

---

(٢٣) صحيح البخاري، باب: حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، حديث رقم: ١٥، صحيح مسلم، باب: وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، حديث رقم: ١٦.

(٢٤) صحيح البخاري، باب: حلاوة الإيمان، حديث رقم: ١٦، صحيح مسلم، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم: ٤٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رَسُولَ اللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: الْآنَ يَا عُمَرُ"(٢٥). وعلق ابن رجب رحمه الله على هذا الموقف التربوي، فقال: "يجب تقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على النفوس والأولاد والأقارب والأهلين والأموال والمساكين، وغير ذلك مما يحبه الناس غاية المحبة"(٢٦).

سادساً: من أبرز معالم المحبة الصادقة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم: الطاعة التامة لهما، فهي الأساس الذي تُبنى عليه المحبة، ومحورها الجوهري الذي لا تنفك عنه بحال، وقد جاء التوجيه القرآني مؤكدًا هذا المعنى في مواضع عدة، حيث اقترنت طاعة الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، مما يدل على التلازم الوثيق بينهما، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ**﴾(٢٧)، وقوله سبحانه: ﴿**مَّن**

---

(٢٥) صحيح البخاري، باب: كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم، رقم: ٦٦٣٢.

(٢٦) فتح الباري لابن رجب، فصل: أمور الإيمان، (١/٤٩).

(٢٧) النساء: ٥٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(٢٨)، وقوله جل جلاله: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ**﴾(٢٩)، ومن هنا، فإن الاعتقاد بوجوب طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يُعدُّ أصلًا من أصول الإيمان، وركنًا من أركانه، والسيرُ على هذا النهج هو الصراط المستقيم الواجب التمسك به، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ**﴾(٣٠).

وقد بين ابن باز رحمه الله معنى الصراط المستقيم، فقال: "والمعنى: الزموا الطريق الواضح الذي سار عليه نبيُّكم عليه الصلاة والسلام، وسار عليه أصحابُه، وبيَّنه كتابُ الله، وبيَّنته السُّنة، فالزموه وسيروا عليه، وهو توحيد الله وطاعته، واتِّباع شريعته، وتعظيم أمره ونهيه، ودعوا ما خالف ذلك، هذا هو الصِّراط المستقيم"(٣١).

سابعاً: من أعظم ثمرات طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم: الفوز بالجنة، وهي الغاية الكبرى التي يطمح إليها كل مؤمن صادق،

---

(٢٨) النساء: ٨٠.

(٢٩) محمد: ٣٣.

(٣٠) الأنعام: ١٥٣.

(٣١) شرح تفسير ابن كثير، سورة الأنعام، موقع الإمام ابن باز رحمه الله.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كما أن من أعزّ ما يُرجى في الآخرة مرافقة من أنعم الله عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وهي الرفقة المباركة التي تغبطها القلوب وتطمئن لها الأرواح، وقد جاء التأكيد على هذا الجزاء العظيم في مواضع متعددة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**﴾(٣٢)، وقوله سبحانه: ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا**﴾(٣٣).

ثامناً: كما أن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم سبب في نيل المحبة الله تعالى ودخول الجنة ورفقة الأخيار، فإن عصيانهما –والعياذ بالله– سبب في الخسران المبين والعذاب المهين، وهو ما يبيّنه القرآن الكريم تحذيرًا وتنبيهًا لعباده، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾(٣٤)، وقوله: ﴿**وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ**

---

(٣٢) النساء: ١٣.

(٣٣) النساء: ٦٩.

(٣٤) النساء: ١٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[١]. أوضح الجزائري رحمه الله في تفسيره معنى ذلك: "أي: يُخبر تعالى موعداً أن من يعص الله بالشرك به وبرسوله بتكذيبه وعدم اتباعه فيما جاء به فإن له جزاء شركه وعصيانه نار جهنم خالدين فيها أبداً"[٢].

تاسعاً: إن المحبة الحقيقية لله تعالى لا تنبع من فراغ، بل تنشأ عن معرفة صحيحة به سبحانه، وكلما ازدادت هذه المعرفة، ازدادت المحبة، وقوي معها الإيمان، وازداد تعظيم العبد لربه وخضوعه له وطاعته، وهذا هو جوهر العبودية ومقصد الخلق، ومن أعظم أبواب المعرفة بالله: العناية بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، حِفْظًا وفهمًا وعملاً بمقتضاها، وقد بيّن ابن القيم رحمه الله هذه الحقيقة بقوله: "وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلَمَ، كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر، كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد"[٣]. وفي السياق ذاته؛ قال

(١) الجن: ٢٣.
(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٤٥٣).
(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، (١/ ٦-٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ابن رجب رحمه الله: "ومحبة الرسول، فتنشأ عن معرفته ومعرفة كماله وأوصافه وعظم ما جاء به، وينشأ ذلك من معرفة مرسله وعظمته"(١). وفي نفس المعنى أيضاً، قال السعدي رحمه الله: "ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها"(٢). ويمكن القول: أنه كلما ازدادت العناية بمعرفة بالله تعالى زاد الإيمان وارتقى، وكلما زاد الإيمان وارتقى زاد تعظيم لله ومحبته عز وجل، وكلما زاد تعظيمه ومحبته زادت طاعته وعبوديته، وهذا هو الشرف العظيم والمقصد الأسمى من خلق الإنسان، أن يوحده حق توحيده ويعظمه ويطيعه ويخلص له العبادة وحده سبحانه، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾(٣).

عاشراً: إن ثبات الإيمان في القلب ورسوخه هو الأساس الذي تُبنى عليه طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فكلما ازداد الإيمان، ازدادت المحبة، وقوي الاتباع، والعكس صحيح؛ فضعف الإيمان

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، فصل في أمور الإيمان، (٥٣/١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٣٥).

(٣) الذاريات: ٥٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يولّد فتور المحبة ونقص الطاعة، ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن سار على نهجهم، من أكمل الناس إيمانًا، وأشدهم حبًا لله ورسوله، وأعظمهم طاعة واتباعًا، فكمال الإيمان يثمر كمال المحبة، وكمال المحبة يُفضي إلى كمال الاتباع، وقد عبّر القرآن عن حال المؤمنين الصادقين بقوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾(١). قال البغوي رحمه الله: "أي: أثبت وأدوم على حبه؛ لأنهم لا يختارون على الله ما سواه، فالمؤمن لا يُعرض عن الله في السراء والضراء والشدة والرخا"(٢).

الحادي عشر: جاء في القرآن الكريم وصف جامع دقيق لصفات المؤمنين والمؤمنات، يبرز من خلاله مدى ارتباط الإيمان بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(٣). وهذه الصفات العظيمة تدل على أن الإيمان ليس مجرد دعوى، بل هو سلوك عملي ينعكس في محبة الله

---

(١) البقرة: ١٦٥.

(٢) تفسير البغوي (١/ ١٧٨).

(٣) التوبة: ٧١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ورسوله، والطاعة لهما، والدعوة للخير، والتكاتف بين أفراد المجتمع المؤمن، ومن أبرز ثمرات هذا الإيمان نيل رحمة الله عز وجل، كما خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، وعلّق ابن كثير رحمه الله على ذلك بقوله: "أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿**حَكِيمٌ**﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء"[(١)].

الثاني عشر: تُعد محبة الله تعالى من أعظم المطالب الإيمانية، وهي غاية يسعى إليها الصالحون، وشرف لا يُنال إلاّ بالسير في طريق الطاعة والاتباع، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن رجب رحمه الله بقوله: "إن درجة المحبة لله تعالى إنما تنال بطاعته وبفعل ما يحبه فإذا امتثل العبد أوامر مولاه وفعل ما يحبه أحبه الله تعالى ورقاه إلى درجة محبته، كما في الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ .. الحديث»[(٢)][(٣)]. وفي نفس المعنى، يؤكد ابن عثيمين رحمه

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٤).

(٢) صحيح البخاري، باب: التواضع، رقم: ٢٣٨٥.

(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي، سورة ص: ٦٩، (٢/ ٢١٦).

الله أن نيل محبة الله تعالى ليس بالأمر العسير على من يسره الله له، إذ قال: "ومحبة الله عز وجل تنال بشرط يسير لمن يسره الله عليه، نسأل الله أن ييسره لنا، وهو: اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ظاهرًا وباطنًا، في العقيدة والقول والفعل، فإذا حققت ذلك فإن محبة الله سوف تنالك".

الثالث عشر: من دلائل محبة الله تعالى لعباده أن يلقي لهم القبول في الأرض، ويجعل لهم المحبة في قلوب عباده الصالحين، وهو أثر من آثار محبة الله لعبده الصادق في اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم، كما دلّ على ذلك الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ"(١).

الرابع عشر: أوضح أهل العلم دلائل وعلامات محبة الله تعالى للعبد، فمن ذلك:

---

(١) صحيح البخاري، باب: ذكر الملائكة، رقم: ٣٢٠٩، صحيح مسلم، باب: إذا أحب الله عبداً حببه لعباده، رقم: ٢٦٣٧.

- قال ابن عطية رحمه الله: "ومحبة الله للعبد أمارتها للمتأمل أن يُرى العبد مهدياً مسدداً ذا قبول في الأرض، فلطف الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته"(١).
- ذكر القرطبي رحمه الله: "أن محبة الله للعبد تظهر أيضًا في مغفرته وإحسانه إليه، واستدل بقول الله تعالى: ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ**﴾(٢)، أي لا يغفر لهم"(٣). فالمغفرة أثر من آثار المحبة، كما أن الحرمان منها دليل على البُعد من الله.
- قال السعدي رحمه الله كما جاء في تفسيره للآية محور المقال: "فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته"(٤). وفي موضع آخر قال رحمه الله: "وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل"(٥).

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، آل عمران: ٣٣، (١/ ٤٢٢).

(٢) آل عمران: ٣٢.

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٦٠).

(٤) تفسير السعدي (ص: ١٢٨).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٢٣٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- قال عبد السلام الشويعر: "ليعلم المسلم أنه كلما صُرفت عنه أسباب المعصية، وحببت إليه أسباب الطاعة؛ فإن هذا من محبة الله له جل وعلا".

الخامس عشر: إن مقياس المحبة الصادقة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم هو الاستجابة الكاملة لأوامرهما، والانقياد التام لما يحبه الله ورسوله، وترك ما يبغضانه، وكما قيل:

لو كان حُبُّكَ صادقاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لمن يُحبُّ مُطِيعُ

ولابن رجب رحمه الله كلاماً يكتب بمداد من ذهب حول المحبة الصادقة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، قال: "فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه، أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى بما يرضى الله رسوله، ويسخط ما يسخطه الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئا يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الواجبة"[١]. ولذلك جاءت دعوة الله للمؤمنين صريحةً في كتابه، تُحفّزهم إلى هذا الاتباع الصادق، فقال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ**﴾[٢]. وأوضح السعدي رحمه الله معنى هذه الآية بقوله: "يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه، وقوله: ﴿**إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ**﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام"[٣].

السادس عشر: إن المحبة الصادقة لله تعالى لا تُثبت بالكلام فقط، بل تظهر في الامتثال الفوري والانقياد الكامل لأوامره، كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم، ويتضح ذلك جلياً في موقف عظيم يمثل أرقى صور الطاعة والاستجابة لله ورسوله، حينما نزل تحريم الخمر تدريجيًا، تهيئةً للنفوس

---

(١) جامع العلوم والحكم، الحديث والواحد والأربعون، ص ٨٢٧.

(٢) الأنفال: ٢٤.

(٣) تفسير السعدي (ص: ٣١٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

واستصلاحًا لها، حتى جاء البيان الحاسم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾(٤). وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُلح في الدعاء، قائلاً: "اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا"، فلما نزلت هذه الآية، دُعي عمر رضي الله عنه فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿**فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾، قال رضي الله عنه: "انتهينا، انتهينا"(٥).

السابع عشر: من لوازم صدق المحبة والاتباع أن تكون الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شاملة للظاهر والباطن، علانية وسرًا، فلا يكفي أن يُظهر الإنسان الطاعة في حضرة الناس أو في العلن، ثم يخالف ذلك في الباطن أو حين يغيب عن أعينهم، فإن هذا من صفات المنافقين الذين حذّر القرآن الكريم منهم أشد التحذير، قال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ**

---

(٤) المائدة: ٩١.

(٥) الألباني، صحيح سنن الترمذي، باب: ذكر الشراب الذي أهريق بتحريم الخمر، رقم: ٥١١٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾(٦). وأوضح ابن كثير رحمه الله معنى ذلك: "**﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾** يُخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة **﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عندك﴾** أي: خرجوا وتواروا عنك **﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾**، أي: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه، فقال تعالى: **﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾** أي: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين"(٧). وهذا الملمح يؤكد أن المحبة الحقيقية لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم لا تكتمل إلا بطاعة صادقة مستقرة في القلب، يظهر أثرها في القول والعمل في كل حال، فلا رياء فيها ولا نفاق، فالمؤمن لا يُخالف باطنه ظاهره، بل يتجلى صدق اتباعه للنبي صلى الله عليه وسلم في السر كما في العلن.

الثامن عشر: من علامات الحرمان وغياب توفيق الله تعالى، أن ينحرف المسلم عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهي الطاعة التي تتجلى فيها أسباب الخير والصلاح في الدنيا والآخرة، ومن أعظم صور هذا الحرمان: اتباع غير منهج الله تعالى، سواءً في العقائد الفاسدة المنتشرة

---

(٦) النساء: ٨١.

(٧) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

اليوم، أو في الاحتكام إلى القوانين والأنظمة الوضعية التي تخالف العقل السوي والفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، لا سيما حين تمسّ هذه الانحرافات جوانب العقيدة أو التشريع أو الأخلاق، وقد حذّر القرآن الكريم من هذا المسلك، فقال الله تعالى: ﴿**وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ**﴾(٨).

قال السعدي رحمه الله: "يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿**وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ**﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم، وعلومهم، فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق، بل غايتهم أنهم يتبعون الظن، الذي لا يغني من الحق شيئاً، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحرى أن يحذِّر الله منه عبادَه، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه"(٩).

---

(٨) الأنعام: ١١٦.

(٩) تفسير السعدي (ص: ٢٧٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التاسع عشر: لا شك أن بلوغ محبة الله تعالى لا يكون إلا بطاعته، والتمسك بكتابه العزيز، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، غير أن العبد في ذلك كله يظل فقيرًا إلى ربه عز وجل، محتاجًا إلى عونه وتوفيقه وسداده؛ فبيده وحده الحول والقوة، ومن أهم الوسائل التي تُعين العبد على الثبات في طاعة الله تعالى: الإكثار من الدعاء، خصوصًا في أوقات الإجابة، والتضرع إليه بالتوفيق والهداية، فإن الدعاء من أعظم أبواب العبادة، بل هو جوهرها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ"(١٠). وقد بيّن القرآن الكريم حال أنبياء الله الذين أدركوا عظمة توفيق الله لهم، فها هو نبي الله شعيب عليه السلام يقول: ﴿**وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ**﴾(١١). وعلّق الرازي رحمه الله على هذه الآية بقوله: "بين بهذا أن توكله واعتماده في تنفيذ كل الأعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته، واعلم

---

(١٠) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، الترغيب في كثرة الدعاء، وما جاء في فضله، رقم: ١٦٢٧.

(١١) هود: ٨٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن قوله عليه السلام ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ إشارة إلى محض التوحيد، وهو أنه لا ينبغي للإنسان أن يتوكل على أحد إلا على الله تعالى"(١٢).

العشرون: الأدعية المعِينة على التوفيق لطاعة الله تعالى أكثر من أن تُحصى، وقد ذكرها وشرحها أهل العلم الثقات في مؤلفات خاصة يُرجع إليها لمن أراد المزيد، وسأكتفي هنا فقط بالإشارة إلى ماله ارتباط وثيق ببلوغ محبة الله تعالى، وهو دعاء شريف جمع بين المحبة والعمل، ودلّ على أصل الاتباع وثمرته، قال صلى الله عليه وسلم: "كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ؛ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ"(١٣). وعلق ابن رجب رحمه الله على هذا الحديث بقوله: "هذا الدعاء يجمعُ كل خير، فإن الأفعال الاختيارية من العباد إِنَّما تنشأ عن محبة وإرادة، فإن كانت محبة الله ثابتة في قلب العبد نشأت عنها حركات الجوارح فكانت بحسب ما يحبه الله ويرتضيه، فأحبَّ ما يحبه الله من الأعمال والأقوال كلها، ففعل حينئذ الخيرات كلها وترك المنكرات كلها، وأحب من يحبه الله من خلقه، وهذا

---

(١٢) تفسير الرازي (١٨/ ٣٨٩).

(١٣) الترمذي، حديث رقم: ٣٤٩٠.

الدعاء كانت الأنبياء عليهم السلام تدعوا به كما في الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أن داود عليه السلام كان يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ"(١٤).

الواحد والعشرون: إن العبد المحب لله تعالى والمجتهد في تكميل عبادته من خلال التزامه الدائم بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، قد يقع منه خطأ أو زلّة عابرة، بسبب تسلّط الشيطان عليه، أو استجابة لنفسه الأمّارة بالسوء، أو لكليهما معًا، وقد قرّرت الشريعة الإسلامية أن الوقوع في الذنب أمر بشري لا ينفكّ عنه الإنسان، مهما بلغ من الصلاح، ما دام في دائرة المجاهدة، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوابُونَ"(١٥). كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم

(١٤) رسائل ابن رجب الحنبلي، الفصل الثالث: في ذكر الدعوات المذكورة في هذا الحديث، (٤/٥٣).

(١٥) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، الترغيب في التوبة والمبادرة بها وإتْباع السيئة الحسنة، رقم: ٣١٣٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مُّبۡصِرُونَ﴾[١٦]. وأوضح ابن باز رحمه الله معنى الآية بقوله: "﴿**إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ**﴾ يعني: شيئًا من نزغاته ووساوسه التي تُميلهم إلى الباطل، ﴿**تَذَكَّرُواْ**﴾ ما عليهم من حقِ الله، وتذكَّروا ما يجب عليهم من تعظيم الله وطاعته؛ فأفاقوا ورجعوا إلى الحقِ، واستقاموا عليه"، ومع ذلك يمكن القول: أن الوقوع في الزلل لا يُبطل أصل المحبة، ما دام العبد يُسارع إلى التوبة، ويجاهد نفسه للرجوع والاستقامة.

الثاني والعشرون: قد يقع العبد الصادق في محبته لله تعالى، في معصية أو زلة بسبب بشريته وضعفه، فيُعاقبه الله تعالى على ذنبه، لكن هذه العقوبة ليست عقوبة انتقام، بل هي تربية رحيمة، يُقصد بها تنبيهه وتحذيره، لئلا يعود إلى الذنب مرة أخرى، فتكون علامة على محبة الله له، أما من استمرأ المعصية، وجعلها ديدنه، وتمادى في الفساد دون خوف أو توبة، فإن له من العقوبة ما يناسب حاله من الغفلة والتمرد، فهو في حاجة إلى علاج أشدّ وأسلوب آخر من التربية والزجر. وقد أشار إلى هذا المعنى الدقيق ابن القيم رحمه الله، فقال: "يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظاً

(١٦) الأعراف: ٢٠١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حذراً، وأما من سقط من عينه وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها"(١). وأستطيع القول: أن المحب الصادق لله تعالى قد يزل، لكن محبته تُثمِر يقظةً وتوبة، فيكون أدبه من ربه بابًا إلى مزيد من القرب، لا إلى الطرد، أما من خلا قلبه من المحبة والاتباع، فاستمر في غيّه، فإن لله فيه حكمة أخرى قد لا يدركها إلا من وعى سنن الله في عباده.

الثالث والعشرون: الواجب على العبد المحب لله تعالى أن يحذر كل الحذر من الانحراف عن طاعة الله، أو التساهل والتفريط في الاستجابة لأوامره واجتناب نواهيه، فإن في ذلك حفظًا لنفسه ودينه، وسببًا لبقائه في دائرة العناية الإلهية والرعاية الربانية، وقد دلّ على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ"(٢). ومعنى ذلك كما قال ابن عثيمين رحمه الله: "أن من حَفِظَ حدود الله وشرائع الله حَفِظَه الله في دينهِ وبدنهِ

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، (٣/ ٧٢٧).
(٢) الألباني، صحيح الترمذي، رقم: ٢٥١٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومالِهِ وأهلِهِ وعرضِهِ أيضًا"(١). وهذا يوضّح أن صدق الاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم يقتضي التزامًا دائمًا بأوامر الله، وحذرًا من التفريط، لأن حفظ العبد لحدود الله سبب في حفظ الله له، جزاءً ووقايةً وتوفيقًا.

الرابع والعشرون: من سنن الله تعالى الثابتة في خلقه أن يبتلي عباده، ليختبر صدقهم ويزكّي نفوسهم، وقد قال سبحانه: ﴿**ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾(٢). والابتلاء لا يتعارض مع التقوى، بل قد يكون أشد على أهل الإيمان، كما وقع للأنبياء عليهم السلام، وهم صفوة الخلق وأتقاهم، فقد سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ"(٣). ولذلك فإن الابتلاء، مهما اشتد، لا يُقابل بالتسخّط عند أهل الإيمان الصادقين، بل يُستقبل برضا وتسليم، بل

(١) شرح كتاب الجامع، موقع أهل الحديث والأثر.

(٢) الملك: ٢.

(٣) سنن ابن ماجه، باب الصبر على البلاء، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، رقم: ٤٠٢٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد يأنسون به، لما يرون فيه من أثر العناية الإلهية والتزكية الروحية، وقد أشار ابن القيم رحمه الله إلى هذه المعاني العظيمة، فقال: "إن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت فيه، كان أذى المحب في رضى محبوبه مستحلى غير مسخوط، والمحبون يفتخرون عند أحبابهم بذلك، حتى قال قائلهم:

لَئنْ سَاءنِي أَنْ نِلْتَنِي بِمَسَاءةٍ ... لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَ

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه". ثم قال رحمه الله: "ابتلاء المؤمن كالدّواء له، يَستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصَت ثوابه، وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاءُ والامتحانُ منه تلك الأدواء، ويستعدُّ به لتمام الأجر وعلوّ المنزلة"[(١)]. والخلاصة: فالمحب الصادق لله تعالى، المتّبع لنبيه صلى الله عليه وسلم، يعلم أن طريق المحبة محفوف بالابتلاء، ولكنه يحمل في طياته رفعة ومحبة واصطفاء، ويقود في نهايته إلى كمال الأجر ورضوان الله.

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، (٢/ ١٨٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٢)

جزاء الشاكرين وثبات المؤمنين

﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جزاء الشاكرين وثبات المؤمنين

﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[١].

تمهيد:

من جمال شريعة الإسلام وكمالها يُسرها وموافقتها التامة للفطرة البشرية، فلا يوجد في شريعة الإسلام عنت ومشقة البتة، بل إذا وُجدت المشقة وجب التيسير، كما هو معروف في القاعدة الأصولية؛ "المشقة تجلب التيسير"، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[٢].

قال السعدي رحمه الله: "أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهَّله تسهيلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات"[٣].

ومن وفقه الله تعالى وأراد به خيراً التزم طاعة ربه عز وجل ووجد فيها سلوته

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٧).

وراحة قلبه، ومن لم يوفقه الله عز وجل ولم يرد به خيراً استثقل العبادات وضاق صدره منها، ولعل ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ**﴾(٤).

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال ابن عاشور رحمه الله: "وقوله: ﴿**وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا**﴾ أي: شيئاً من الضر، ولو قليلاً، لأن الارتداد عن الدين إبطال لما فيه صلاح الناس، فالمرتد يضر بنفسه وبالناس، ولا يضر الله شيئاً، ولكن الشاكر الثابت على الإيمان يجازى بالشكر؛ لأنه سعى في صلاح نفسه وصلاح الناس، والله يحب الصلاح ولا يحب الفساد"(٥).

وقال ابن عثيمين رحمه الله: وقوله: ﴿**وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا**﴾: هنا قال: ﴿**وَمَن يَنقَلِبۡ**﴾ فعدل من جملة الخطاب إلى العموم دون أن يقول: وإن انقلبتم على أعقابكم فلن تضروا الله شيئًا من أجل أن يكون الحكم عامًا شاملًا، فقوله: ﴿**وَمَن يَنقَلِبۡ**﴾ "**مَن**" شرطية

---

(٤) الأنعام: ١٢٥.

(٥) التحرير والتنوير (٤/ ١١٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَعُم كل منقلب على عقبيه، والفعل هنا بعدها مجزوم، فعل الشرط، أما جواب الشرط فهو ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ وشيئًا نكرة، والنكرة في سياق النفي تعم، يعني: الذي ينقلب على عقبيه ويرتد عن الإيمان لن يضر الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لن ينتفع بطاعة الطائعين، ولن يتضرر بمعصية العاصين، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ فيرجع بعد أن كان مسلمًا فلن يضر الله شيئًا، وإنما يضر في الحقيقة نفسه ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: سوف تدل على المهلة والسين تدل على الفورية ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: سيكافئهم، والشاكرون هم الذين قاموا بشكر نعمة الله، وقد مرَّ علينا أن الشكر هو القيام بطاعة المنعم بالقلب واللسان والجوارح".

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: فائدة لغوية: "الْعقب" آخر كل شَيْء وخاتمته، وهو عظمُ مُؤخر الْقدَم وأكبر عظامها[٦]. ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ أي: يرتد ناكصًا من

---

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (٢/ ٦١٣).

حيث جاء، وهي كناية عن النكوص عن الهُدى[٧]. ويُقال نكص على عقبيه: أي: رجع عما كان عليه من الخير، ولا يقال ذلك إلا في الرجوع عن الخير خاصة[٨].

ثانياً: أهم ما يجب أن يعتني به الإنسان في حياته ترسيخ عقيدة التوحيد الخالص والمحافظة عليها لتكون هي البوصلة الموجهة لحركاته وسكناتها كلها؛ دقها وجلها، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾[٩]. قال المراغي رحمه الله: "الآية جامعة لكل الأعمال الصالحة التي هي غرض المؤمن الموحد من حياته وذخيرته لمماته، ويكون فيها الإخلاص لله رب العالمين"[١٠]. والحذر أشد الحذر من الشرك بالله تعالى؛ فهو محبط للعمل، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[١١]؛ لأن ضعف العقيدة في القلوب مظنة الانحراف والبعد عن

(٧) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي اللغوي، (٣/ ١٤٩٧).

(٨) ابن منظور، لسان العرب، فصل النون، (٧/ ١٠١).

(٩) الأنعام: ١٦٢- ١٦٣.

(١٠) تفسير المراغي (٨/ ٩٠).

(١١) الأنعام: ٨٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جادة الصواب. قال ابن القيم رحمه الله: "ومن لم يرسخ الإيمان في قلبه ولم يستقر عليه قدمه أعرض ورجع على حافره وشك في النبوة وخالط قلبه شبهة الكفار"(١٢).

ثالثاً: الاجتهاد في تثبيت عقيدة التوحيد الخالص في نفوس الناس بكل وسيلة مشروعة ممكنة، وتوجيههم للعلم الشرعي المؤصل من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة الصالح رحمهم الله تعالى، والحرص على العناية التامة بطاعة الله تعالى والتمسك بشرعه في اتباع ما أمر واجتناب ما نهى عنه، وسؤال الله عز وجل الثبات على دينه؛ بقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ**﴾(١٣). قال ابن باز رحمه الله: "ينبغي الإكثار من هذا الدعاء العظيم؛ لما فيه من الخير العظيم، وطلب الثَّبات في القلب، وطلب الرحمة، فهو دعاء عظيم، جديرٌ بالمؤمن والمؤمنة، وبكل طالب علمٍ أن يدعو به، كما دعا به الرَّاسخون في العلم، حتى ولو في السّجود، ولو في الصّلاة؛ لأنَّ هذا يُقصد به الدّعاء، لا يقصد القراءة، يدعو به يقصد الدّعاء، لا يقصد القراءة".

---

(١٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والسعادة، (٢/ ٣١).

(١٣) آل عمران: ٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رابعاً: أهمية أخذ الحيطة والحذر في مواجهة كل ما يُزعزع أمر الدين، أو يشكك في الإسلام وثوابته وعلمائه، والتعرف على الوسائل الخبيثة المستخدمة لذلك، والدفاع عنه بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿**ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ**﴾[١]. وأن يتولى مواجهة ذلك العلماء الراسخون في العلم وطلاب العلم المتميزون فهم الأجدر للقيام بهذه المهمة العظيمة، قال عز وجل: ﴿**فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ**﴾[٢]. وجميل وجميل قول السعدي رحمه الله: "ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه، فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره، الذي ينمى له، وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأي منفعة حصلت

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) التوبة: ١٢٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً"[١].

خامساً: إن عداوة الشيطان للإنسان متأصلة، ويتخذ كافة السُبل لإغوائه وإبعاده عن طريق الخير وإيقاعه في براثن الشرك والكفر وكبائر المعاصي والذنوب، ومن أهم ما يسعى إليه هو وجنوده من شياطين الإنس انحراف الناس عن الصراط المستقيم ونكوصهم على أعاقبهم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ**﴾[٢]. قال الطبري رحمه الله: "إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفاراً بالله من بعد ما تبين لهم الحق وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجة، ثم آثروا الضلال على الهدى عناداً لأمر الله تعالى ذكره من بعد العلم، إن الشيطان زين لهم ارتدادهم على أدبارهم، من بعد ما تبين لهم الهدى"[٣].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٣٥٥).

(٢) محمد: ٢٥.

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ١٨٠). وانظر مقالي: ملامح تربوية مستنبطة من قول الله تعالى: {إن كيد الشيطان كان ضعيفاً}، موقع الألوكة.

سادساً: العبارة القرآنية موضوع المقال: ﴿**وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ**﴾

تؤكد على أهمية المحافظة على شكر الله تعالى على نعمه، فمن لزم الشكر قولاً وفعلاً وفي كل الأحوال نال خيراً كثيراً في الدنيا والآخرة، قال ابن القيم رحمه الله: "الشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان، فلم ينقلبوا على أعقابهم"(١). ومن أعظم الشكر؛ شكر الله تعالى على نعمة الإسلام، وما أعظمها من نعمة!!، قال ابن باز رحمه الله: "نعمة الإسلام عاقبتها الجنة والكرامة والوصول إلى دار النعيم بجوار الرب الكريم في دار لا يفنى نعيمها ولا يبلى شباب أهلها ولا تزول صحتهم ولا أمنهم، بل هم في صحة دائمة، وأمن دائم، وشباب لا يبلى، وخير لا ينفد وجوار للرب الكريم"(٢).

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (١/ ٢٢٠).

(٢) شكر النعمة حقيقته وعلاماته، لقاءات وحوارات، موقع الإمام ابن باز رحمه الله.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٣)

كل شيء زائل والبقاء للّه وحده

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كل شيء زائل والبقاء لله وحده

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾[١].

تمهيد:

الجملة القرآنية المشار إليها في العنوان جاءت في ختام قوله تعالى: **﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾**[٢]. وهناك آية مشابهة لها؛ قوله تعالى: **﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾**[٣]. ووجه الشبه بين الآيتين؛ يكمن في اشتراكهما في جملتين؛ **﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾** و **﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾**، والآيتان تتحدثان عن الإنفاق في سبيل الله، ولكن من زاويتين متقابلتين؛ ففي آية آل عمران، يأتي الحديث في سياق التحذير من البخل،

---

(١) آل عمران: ١٨٠.

(٢) آل عمران: ١٨٠.

(٣) الحديد: ١٠.

حيث يُذكِّر البخلاء بأن المال الذي يحرصون عليه سيؤول في النهاية إلى الله، ولن ينفعهم بخلهم، بل سيحملون وزره يوم القيامة، أما آية الحديد، فتتناول الموضوع من زاوية الترغيب في الإنفاق، وتحفيز المؤمنين على السخاء في العطاء.

ولتجنب الإطالة سيتم حصر الموضوع حول الملامح التربوية المستنبطة من قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾.

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الطبري رحمه الله: "يعني بذلك جل ثناؤه: أنه الحي الذي لا يموت، والباقي بعد فناء جميع خلقه؛ فإن قال قائل: فما معنى قوله: ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ والميراث المعروف: هو ما انتقل من ملك مالك إلى وارثه بموته ولله الدنيا قبل فناء خلقه وبعده؟ قيل: إن معنى ذلك ما وصفنا من وصفه نفسه بالبقاء، وإعلام خلقه أنه كتب عليهم الفناء وذلك أن ملك المالك إنما يصير ميراثاً بعد وفاته، فإنما قال جل ثناؤه: ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ إعلاماً بذلك منه عباده أن أملاك

جميع خلقه منتقلة عنهم بموتهم، وأنه لا أحد إلا وهو فانٍ سواء، فإنه الذي إذا هلك جميع خلقه، فزالت أملاكهم عنهم لم يبق أحد يكون له ما كانوا يملكونه غيره، ثم أخبر تعالى ذكره أنه بما يعمل هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضل وغيرهم من سائر خلقه، ذو خبرة وعلم، محيط بذلك كله، حتى يجازي كلاً منهم على قدر استحقاقه، المحسن بالإحسان، والمسيء على ما يرى تعالى ذكره"(٤).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: المتأمل لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجد أنها تحمل تنبيهاً وتحذيراً بأن كل ما في السماوات والأرض يعود في النهاية إلى الله تعالى، فهو المالك الحقيقي لكل شيء، وما يملكه الإنسان زائل لا يدوم، وقد جاء هذا المعنى مؤكدًا في آيات عديدة، منها قوله سبحانه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾(٥). وقوله عز وجل: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ**﴾(٦). وقوله تعالى: ﴿**وَكَمْ**

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٤٤٠).

(٥) مريم: ٤٠.

(٦) الحجر: ٢٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[٧]. فهذه الآيات وغيرها تؤكد أن الله تعالى هو الوارث الحقيقي لكل شيء، وأن ملكية الخلق جميعًا مؤقتة، وما بأيديهم سيؤول إليه سبحانه، مهما طال الزمن، ومن وفقه الله إلى إدراك هذه الحقيقة، أدرك زوال الدنيا وسعى إلى طاعته سبحانه، مسترشدًا بقوله تعالى: **﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾**[٨].

ثانياً: هناك فرق شاسع بين وراثة الإنسان للمال، سواء كان ذلك من والده أو أي جهة أخرى، وبين كون الله تعالى هو الوارث الحقيقي، فوراثة الإنسان مالًا إنما هي مجازية، لأن المال في الأصل ملك لله تعالى، قال سبحانه: **﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾**[٩]. أما الله عز وجل، فهو الوارث على الحقيقة، إذ إن ملك السماوات والأرض وسائر الموجودات له وحده، وكل ما في أيدي البشر إنما هو أمانة مستردة. وقد أشار القرطبي رحمه الله إلى هذا المعنى في تفسيره، حيث قال: "إن الوارث في الحقيقة هو

(٧) القصص: ٥٨.

(٨) القصص: ٧٧.

(٩) المائدة: ١٢٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الذي يرث شيئاً لم يكن ملكه من قبل، والله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض وما بينهما، وكانت السموات وما فيها، والأرض وما فيها له، وإن الأموال كانت عارية عند أربابها، فإذا ماتوا ردت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل"(١).

ثالثاً: الإسلام يدعو إلى فعل الخير والحث عليه، كما قال الله تعالى: ﴿**وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ**﴾(٢). قال ابن عاشور رحمه الله: "وقوله ﴿**وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ**﴾ أمر بإسداء الخير إلى الناس من الزكاة، وحسن المعاملة كصلة الرّحِم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق"(٣).

وليس ذلك فحسب، بل يأمرنا الله عز وجل بالمسارعة والمسابقة إلى الخير، كما قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾(٤)، وقوله وقوله سبحانه: ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ**

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٩٣).

(٢) الحج: ٧٧.

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٦).

(٤) آل عمران: ١٣٣-١٣٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[١]. فالفرص لفعل الخير قد تأتي في أي لحظة، والأجدر بالمرء أن يبادر إليها دون تردد، لأن التباطؤ قد يفوت عليه أجرًا عظيمًا. وقد أشار الرازي رحمه الله إلى هذا المعنى بقوله: "إن الإنفاق فضيلة والمسابقة في الإنفاق تمام الفضيلة"[٢]. وصدق الله العظيم: **﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾**[٣].

رابعاً: إن ميراث الله تعالى يشمل جميع ما أنعم به على عباده من مال، وجاه، وقوة، وعلم، فالموفق هو من يسعى إلى تزكية هذه النعم واستثمارها في وجوه الخير، فالله سبحانه رَزَقَ عباده من فضله بلا حصر، قال تعالى: **﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾**[٤]. وقد أشار ابن قتيبة رحمه الله إلى هذا المعنى بقوله: "فإنّ لله في كل نعمة أنعم بها حقاً وعلى كل بلاء أبلاه زكاة"[٥]. فَرِزْقُ الله عز وجل

---

(١) الحديد: ٢١.

(٢) تفسير الرازي (٢٩/ ٤٥٢).

(٣) التغابن: ١٦.

(٤) إبراهيم: ٣٤.

(٥) عيون الأخبار، ص ٤١.

واسع يشمل كل ما ينفع العبد في دنياه وآخرته. وقد بيّن الطِّيبي رحمه الله هذا بقوله: "الرزق عام يُطلق على جميع ما يختص بالعبد، يقال: رزق المال والولد والعلم وغير ذلك"[١]. ومن أعظم صور شكر النعمة، أن يؤدي العبد زكاتها، فكما أن للمال زكاة، فإن للعلم زكاةً أيضًا. وقد قال ابن عثيمين رحمه الله في هذا السياق: "نشر العلم من زكاته، فكما يتصدق الإنسان بشيء من ماله، فهذا العالم يتصدق بشيء من علمه"[٢].

خامساً: من الأدلة الشرعية على أن الرزق لا يقتصر على المال فحسب، بل يشمل كل نعمة يُنْعِمُ الله تعالى بها على عباده، قول الرسول صلى الله عليه وسلم في فضل أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: "إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا"[٣]، مما يدل على أن الحب والمودة رزق من الله عز وجل، كما قال صلى الله عيه وسلم عنها أيضًا: "وَرَزَقَنِي اللهُ عز وجل وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، (٢/ ٥٠٣).

(٢) كتاب العلم، ص ١٦٦.

(٣) صحيح مسلم، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، حديث رقم: ٢٤٣٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَوْلَادَ النِّسَاءِ"(١)، مما يؤكد أن الأولاد من أعظم الأرزاق التي يمنّ الله بها على عباده.

سادساً: حُب المال غَريزة متأصلة في النفس البشرية، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾(٢)، وقوله عز وجل: ﴿**وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾(٣). قال ابن كثير رحمه الله في هذه الآية مذهبان: "أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال، والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال، وكلاهما صحيح"(٤). ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في حديثه الشريف: "يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ"(٥).

---

(١) مسند أحمد، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، حديث رقم: ٢٤٨٦٤.

(٢) الفجر: ٢٠.

(٣) العاديات: ٨.

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٤٧).

(٥) صحيح مسلم، باب: كراهة الحرص على الدنيا، حديث رقم: ١٠٤٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سابعاً: المالُ نعمة عظيمة من نعم الله تعالى، وهو زينة الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾(١). ولما كان حُبُّه غريزة قد تتملك الإنسان وتسيطر عليه، مما قد يدفعه إلى تجاوز الحدود الشرعية والإضرار بنفسه أو بالآخرين؛ لذلك، دعا الإسلام إلى تهذيبها كغيرها من الغرائز الفطرية، وأكد على مراعاة التوسط والاعتدال وفق القاعدة الشرعية لا إفراط ولا تفريط، قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا**﴾(٢). كما حذر الإسلام من الانشغال بالمال وجعله الهم الأكبر، مؤكداً أن الانشغال به قد يصرف الإنسان عن ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾(٣). وأشار إلى أن المال والأولاد قد يكونان فتنة، لكن الأجر الحقيقي والعظيم هو عند الله، كما في قوله سبحانه: ﴿**إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾(٤).

---

(١) الكهف: ٤٦.

(٢) الفرقان: ٦٧.

(٣) المنافقون: ٩.

(٤) التغابن: ١٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثامناً: أعلى الإسلام أهمية الإنفاق في سبيل الله تعالى، وذم البخل، فقال تعالى: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ**﴾[١]. قال القرطبي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾[٢]، "أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقربكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى، فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق، ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾[٣]؛ أي أنهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له"[٤]. وقال ابن كثير رحمه الله: "﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ أي: أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض، وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿**وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن**

(١) آل عمران: ١٨٠.

(٢) الحديد: ١٠.

(٣) الحديد: ١٠.

(٤) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٣٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[١]، وقال: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾[٢]"[٣].

تاسعاً: الموفق من يبادر في الإنفاق في حياته قبل مماته، قال القاسمي رحمه الله في تفسيره: "فما أجدر أن ينفق المرء في حياته، ويتخذه ذخراً يجده بعد مماته"[٤]. وقال الشعراوي رحمه الله: "إن الإيمان يدعونا ألاّ ننتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الحلقوم، فقد روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: "أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان"[٥][١].

---

(١) سبأ:٣٩.

(٢) النحل:٩٦.

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٥).

(٤) تفسير القاسمي (٩/ ١٤٢).

(٥) صحيح البخاري، باب: أي الصدقة أفضل، وصدقة الشحيح الصحيح، حديث رقم: ١٣٥٣، صحيح مسلم، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، حديث رقم: ١٠٣٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عاشراً: قد يأتي على بعض الناس أفراداً أو جماعات شدائد تقض مضاجعهم من قلة ذات اليد، وهذا مشاهد وملموس قديماً وحديثاً، فالواجب من لديه سعة في المال أن يقف بجانب إخوانه ويبادر إلى مساعدتهم دون تردد مستشعرًا فضل سد حاجتهم وتخفيف معاناتهم. وقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تحث على الإنفاق، منها، قوله تعالى: ﴿**مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ**﴾[٢]. قال ابن كثير رحمه الله: "قيل: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية"[٣]. والإنفاق على المحتاجين وقت الضرورة أشد وقعًا وأعظم أجرًا من الإنفاق في الأحوال العادية، فقد فضل الله من يبادر إلى الصدقة والجهاد في أوقات الشدة، قال

(١) تفسير الشعراوي (٣/ ١٩٠٦).
(٢) الحديد: ١١.
(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾[1].

الحادي عشر: هناك من الناس من يجيد التلون والتهرب من أداء زكاة أموالهم أو مساعد الفقراء والمساكين إما استجابةً لوسوسة الشيطان، أو طاعةً للنفس الأمارة بالسوء، لكن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، فهو العليم الخبير بأعمال عباده، وقد قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وفي هذا المعنى قال الشعراوي رحمه الله: "قول الحق: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قضية تجعل القلب يرتجف خوفاً ورعباً، فقد يدلس الإنسان على البشر، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة، ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله خبير بكل ما يعمل"[2]. ويؤكد ابن عثيمين رحمه الله: "إن هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله قد لا يطّلع عليهم الخلق، فالإنسان قد يكون عنده ملايين ولا يعلم الناس عنه، ويبخل بزكاتها ولا يُعْلَم عنه، فبيَّن الله تعالى، أنه

---

(١) الحديد: ١٠.

(٢) تفسير الشعراوي (٣/ ١٩٠٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خبير بعملهم، والغالب أن من منع الحق في ماله سُلِّط على هلكته في الباطل، يعني: فتح له أبوابًا من الباطل يَصرف فيها ماله فيكون مانعًا لما يجب، واقعًا فيما يحرم، ولهذا هدَّدهم الله بقوله: ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾". فالواجب على المسلم أن يحذر من التهرب والتقصير في أداء حقوق الله، وأن يستشعر رقابته سبحانه، إذ لا ينفع التدليس على الخلق إذا كان الخالق سبحانه مطّلعًا على كل صغيرة وكبيرة.

(٤)

حسبُك اللّه... وليًّا ونصيراً

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيراً﴾

حسبُك اللّه... وليًّا ونصيرًا

﴿وَٱللَّهُ أَعلَمُ بِأَعدَآئِكُم وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرا﴾[١].

تمهيد:

الإنسانُ الذي لم يوجه بوصلة قلبه الوجهة الحقيقية نحو خالقه العليم العظيم؛ والقادر على كل شيء جل جلاله فإنه لا محالة يتيه في متاهات الحياة وتتقاذفه أمواجها المتلاطمة، فالحياة بطبيعتها لا تخلو من الهموم والمشاق، كما قال تعالى: ﴿**لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ**﴾[٢]. وجاء في تفسير الطبري: "﴿**فِي كَبَدٍ**﴾ معناه: في شدة، أي: أنه خُلق يكابد الأمور ويعالجها"[٣]. ولكن قلب الإنسان لا يطمئن، ومشاعره لا تهدأ، إلا بالقرب من خالقه العليم بحاله، المحيط بدقائق أموره، والناس في ذلك درجات؛ فكلما ازداد الإنسان عبادةً لربه، وحرصًا على طاعته، وسموًا بإيمانه، نال من معية الله وولايته ما يُسعد قلبه ويثبت فؤاده، وصدق الله العظيم: ﴿**أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ**

---

(١) النساء: ٤٥.

(٢) البلد: ٤.

(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٣٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾(٤).

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الطبري رحمه الله: "أخبر الله جل ثناؤه عن عداوة اليهود الذين نهى المؤمنين أن يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جل ثناؤه: ﴿**وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ**﴾، يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم، أيها المؤمنون. يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا، وأما: قوله ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا**﴾، فإنه يقول: فبالله، أيها المؤمنون، فثقوا، وعليه فتوكلوا، وإليه فارغبوا، دون غيره، يكفكم مهمكم، وينصركم على أعدائكم ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا**﴾، يقول: وكفاكم وحسبكم بالله ربكم وليا يليكم ويلي أموركم بالحياطة لكم، والحراسة من أن يستفزكم أعداؤكم عن دينكم، أو يصدوكم عن اتباع نبيكم ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ**

(٤) يونس: ٦٢-٦٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نَصِيرًا﴾، يقول: وحسبكم بالله ناصرًا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم، وعلى من بغاكم الغوائل، وبغى دينكم العوج"(٥).

وقال محمد رشيد رضا رحمه الله: "﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾؛ أي: والله أعلم منكم بأعدائكم، ذواتهم كالمنافقين الذين تظنون أنهم منكم وما هم منكم، وأحوالهم وأعمالهم التي يكيدون بها لكم في الخفاء وما يغشونكم به في الجهر بإبراز الخديعة في معرض النصيحة، وإظهار الولاء لكم والرغبة في نصركم؛ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، لكم يتولى شؤونكم بإرشادكم إلى ما فيه خيركم وفوزكم، وينصركم على أعدائكم بتوفيقكم للعمل بأسباب النصر من الاجتماع، والتعاون، والتناصر، وإعداد جميع ما يستطاع من وسائل القوة، فلا تغتروا بولاية غيره ولا تطلبوا النصر إلا منه باتباع سننه في نظام الاجتماع وهدايته في القرآن، ومنها عدم الاعتماد على الأعداء، وأهل الأثرة الذين لا يعملون إلا لمصلحة أنفسهم كاليهود؛ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أبلغ من كفى الله ولياً، أو كفى ولاية الله؛ لأن الكفاية تعلقت بذاته من حيث ولايته"(٦).

---

(٥) تفسير الطبري (٨/ ٤٢٩).

(٦) تفسير المنار (٥/ ١١٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: إن علم الله تعالى لا تحدّه حدود، فهو واسع شامل لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض، كما قال سبحانه: ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا**﴾(٧)، وقال تعالى أيضاً: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ**﴾(٨). وعلّق ابن عثيمين رحمه الله على ذلك بقوله: "وهذه من صيغ العموم التي لم يدخلها تخصيص أبداً، وهذا العموم يشمل أفعاله وأفعال العباد الكليات والجزئيات، يعلم ما يقع وما سيقع ويشمل الواجب والممكن والمستحيل، فعلم الله تعالى واسع شامل محيط لا يستثنى منه شيء، فأما علمه بالواجب، فكعلمه بنفسه وبما له من الصفات الكاملة، وأما علمه بالمستحيل، فمثل قوله تعالى: ﴿**لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾(٩)، وقوله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ**﴾(١٠). وأما علمه بالممكن، فكل ما أخبر الله به عن المخلوقات، فهو من الممكن:

---

(٧) الطلاق: ١٢.

(٨) الأنفال: ٧٥.

(٩) الأنبياء: ٢٢.

(١٠) الحج: ٧٣.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾[١١]، إذاً، فعلم الله تعالى محيط بكل شيء"[١٢].

ثانياً: يُعدّ الإيمان بعلم الله الشامل المحيط من الأركان الأساسية في عقيدة المسلم، فهو أصل عظيم من أصول الإيمان، وقد تكرّر التأكيد عليه في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، بما يدل على أهميته ومكانته، قال الأشقر رحمه الله: "وقد كثر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تقرير هذا الأصل العظيم، فعلم الله محيط بكل شيء، فهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمستحيل، وهو عالم بالعباد وآجالهم، وأرزاقهم، وأحوالهم، وحركاتهم، وسكناتهم، وشقاوتهم، وسعادتهم"[١٣].

ثالثاً: من يتأمل الآية الكريمة السابقة للآية محل الموضوع، وهي قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ

(١١) النحل: ١٩.

(١٢) شرح العقيدة الواسطية، ص: ١٨٤.

(١٣) الأشقر، عمر سليمان، القضاء والقدر، ص ٢٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾(١٤)؛ يجدها تتناول الحديث عن اليهود الذين من أوصافهم كما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة: "الكبر، والحسد، والظلم، وكتمان الحق، وتحريف الكلم عن مواضعه، ومنها الخيانة، والغدر، وسوء الأدب، واحتقار الآخرين، والسعي في الفساد، وإثارة الفتن والحروب، ومنها الكذب، والجشع، وقسوة القلب، ومحبة إشاعة الفاحشة، وأكل الربا"(١٥)، عليهم من الله ما يستحقون، لذا جاء التنبيه من الله تعالى في الآية التي بعدها، وهي آية المقال؛ **﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾**(١٦)، ليُبيّن أن الله سبحانه عليم بعداوة هؤلاء القوم، مطّلع على ما يُكنّونه من شر وحقد تجاه المؤمنين، وفي ذلك تحذيرٌ للمسلمين من مكرهم وعدوانهم، وقد جاء بيان ذلك واضحًا آنفاً من قول المفسرين للآية محل الموضوع.

رابعاً: لقد بيّن القرآن الكريم أن اليهود هم من أشدّ الناس عداوة للمؤمنين خاصة، ولأمم الأرض عامة، فهم يسيرون على خطى إبليس –لعنه

(١٤) النساء: ٤٤.

(١٥) الدرر السنية، موسوعة الأديان، من أوصاف اليهود وأخلاقهم.

(١٦) النساء: ٤٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الله- في عداوته لبني آدم، وقد دلّت على ذلك نصوص كثيرة في كتاب الله تعالى، منها قوله عز وجل: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾(١٧).

قال ابن باز رحمه الله: "النصارى أقرب إلى الحقِّ من اليهود؛ لأنَّ داء اليهود الحسد والبغي وجحد الحقّ؛ تكبُّرًا وتعاظُمًا وحسدًا وبغيًا، أمَّا داء النَّصارى الغالب عليهم داؤهم هو الجهل؛ ولهذا هم أقرب إلى الخير والهدى من اليهود، والواقع شاهدٌ بذلك؛ فإنَّ النصارى في جميع الأوقات لا تزال تجد منهم مَن يُسلم ويُبادر إلى الإسلام في كل وقت"(١٨).

خامساً: من سنن الله تعالى الجارية في خلقه أن يختلف الناس في أفهامهم وميولهم وقدراتهم، بل وحتى في معتقداتهم وانتماءاتهم الدينية، فالتنوع سِمة إنسانية قدَّرها الله بحكمته، كما قال سبحانه: ﴿**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾(١٩). وبسبب هذا الاختلاف، تتعارض المصالح وتتنوع الاتجاهات، مما يؤدي إلى حصول الشحناء

---

(١٧) المائدة: ٨٢.

(١٨) شرح تفسير ابن كثير، موقع الإمام ابن باز رحمه الله.

(١٩) هود: ١١٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والعداوات، خاصة إذا ما تدخلت النفس الأمّارة بالسوء، وأشعل الشيطان نار الفتنة، فكان له دور سريع وفعّال في تأجيج النزاعات واستمرارها. غير أن الفارق الجوهري بين الناس في خضم هذه الفتن هو مدى تقواهم لله تعالى، والتزامهم بالأمر الإلهي في حسن التعامل، كما قال عز وجل: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا**﴾(٢٠). ومن كان لله تعالى أتقى قل شره وكثر خيره، وكان من خيار الناس، والعكس صحيح، وجاء ذلك مؤكداً بقول نبينا صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ"(٢١).

سادساً: إن من أبرز أسباب الظلم والعدوان والفساد وسائر صور العداوة بين الناس، ما يكون ناشئًا في الغالب عن الكِبر والحسد، وهذان الداءان كانا أول ما ظهرا في تاريخ البشرية حين سنَّ إبليس لعنه الله أول سنة سيئة في الكون، فكان أول من عصى ربه بكبره وحسده، فأبى أن يسجد لآدم عليه السلام كما أمره الله عز وجل، وقد صوّر القرآن الكريم

---

(٢٠) الإسراء: ٥٣.

(٢١) أحمد، المسند، حديث رقم: ٨٨١٢، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرون.

هذه الحادثة بأبلغ بيان، في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٨٣﴾[٢٢].

سابعاً: يُعد الحسد من أخطر الأمراض القلبية التي تفتح أبواب الشرور والعداوات بين الناس، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما وقع بين ابني آدم عليه السلام، قابيل وهابيل، في أول حادثة قتل عرفها التاريخ الإنساني، والتي كان دافعها الحسد الأعمى، وقد قصّ القرآن الكريم هذه الحادثة في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ

(٢٢) ص: ٧١-٨٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾[٢٣].

ومكمن الحسد في هذه القصة أن الله تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل، فأعماه الحسد فقتل أخاه ظلماً وعدواناً، وبذلك يتبين أن الحسد داء خطير وباب واسع للشرور، فهو الذي دفع إبليس للعصيان، وقابيل لسفك الدم؛ نسأل الله السلامة والعافية من الكبر والحسد ومن كل داء.

ثامناً: تشير الآية الكريمة محل الموضوع إلى ثلاثة من أسماء الله الحسنى: "العليم، الولي، النصير" ولا شك أن ذكر أسماء الله في مواضعها من الآيات له دلالات عظيمة المتناسبة مع كل آية ذُكرت فيها، فاسم (العليم) يؤكد إحاطة الله تعالى الكاملة بعداوة الأعداء ومكرهم، واسم (الولي) يبين قربه من عباده المؤمنين وتوليه شؤونهم، أما (النصير) فيُطمئن قلوبهم بأن النصر لا يكون إلا من عنده سبحانه. وإجمالاً فإن معرفة أسماء الله الحسنى سبيل للتقرب إلى الله تعالى بالعلم والعمل والدعاء، فهي ذات تأثير قوي في حياة الإنسان، فَتُرْشِد المؤمن إلى أن يستمد العون والسعادة في الدنيا والآخرة من

(٢٣) المائدة: ٢٧-٣١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الله تعالى. قال السعدي رحمه الله: "فكلما زاد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه"[٢٤]. وإذا أيقن العبد بعظمة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، واستقر ذلك في قلبه ولم يخالجه أدنى شك اطمئنت نفسه، وارتفع عنه القلق والاضطراب، وزاد توكله عليه، فعاش حياة ملؤها الأمن والطمأنينة، مهما اشتدت عليه المحن.

تاسعاً: لما كان لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا مكانة عظيمة في تعميق معرفة الله تعالى وترسيخ العقيدة الصافية في قلب المسلم كان من أولى المهمات وأجلها أن يعتني بها إيما اعتناء من حيث: العلم بها، وفهم معانيها، والتأمل في دلالاتها، والعمل بمقتضاها في واقع الحياة. وقد أوضح ابن القيم رحمه الله أهمية هذا الباب العظيم، فقال: "وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلَمَ، كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر، كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد"[٢٥].

---

(٢٤) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص٤١.

(٢٥) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (١/ ٦-٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عاشراً: من مقتضى سلامة الإنسان وحفظه لنفسه أن يكون كيّسًا فَطِنًا، حذرًا في تعاملاته وعلاقاته، فإن من يخالط الناس لا يسلم من الأذى، ولهذا جاء في قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ**﴾(٢٦). قال ابن عثيمين رحمه الله: "يجب على الإنسان أن يكون كَيِّسًا فطنًا، لكن لا يجوز أن نسيء الظن بمن ظاهره العدالة، ونقول هذا من أخذ الحذر، كما قال أهل العلم: يحرم الظن السوء بمسلم ظاهره العدالة، أما من كان ظاهره الفسق فلنا أن نأخذ الحذر منه؛ لئلا يخدعنا". وهذا التوجيه فيه تنبيه مهم إلى ضرورة اختيار الصحبة الصالحة، والحذر من رفقة السوء، امتثالاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ"(٢٧).

---

(٢٦) النساء: ٧١.

(٢٧) الترمذي، باب: ما جاء في صحبة المؤمن تحقيق: أحمد محمد شاكر، وفؤاد محمد عبد الباقي، حديث رقم: ٢٣٩٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٥)

فضل الصلح والتحذير من شح النفس

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فضل الصلح والتحذير من شح النفس

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾(٢٨).

تمهيد:

عندما قرأت الآية موضوع المقال وتأملتها شعرت أن فيها جوانب عدة: في إصلاح الأسرة والمجتمع، وإصلاح النفس وتهذيبها، والتذكير بعظمة الله وقدرته، فهالني ما حوته من معاني، وتذكرت بادئ ذي بدء أن معاني القرآن الكريم بحر لا ساحل له، وكلما ظهرت معاني جديدة تداعت معانٍ أخرى، فهو كلام رب العالمين ليس لمعانيه حد، ولا منتهى، يفيض بمعانٍ متجددة كلما قرأته وجددت التأمل والنظر فيه، فسبحان الذي أودع في كتابه هذه الذخائر، وهذه الكنوز العظيمة التي حيرت العلماء وطلاب العلم قديماً وحديثاً، وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالى: **﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ**

---

(٢٨) النساء: ١٢٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[٢٩]. قال ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب به كلمات ربي وحكمه وآياته الدالة عليه، ﴿**لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ**﴾ أي: لفرغ البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿**وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا**﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله"[٣٠]. ولاشك أن القرآن الكريم كلام الله وجزء أساس من كلمات الله تعالى العامة، فهو معجز ببلاغته، وألفاظه، ومعانيه تحار فيه القلوب والعقول لعظمته، ولا منتهى لمعانيه، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ**﴾[٣١]. قال ابن كثير رحمه الله: "أي: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله"[٣٢].

---

(٢٩) الكهف: ١٠٩.

(٣٠) تفسير ابن كثير (٥/ ١٨٢).

(٣١) التوبة: ٦.

(٣٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

شبكة الألوكة
www.alukah.net

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قرأت عدداً من التفاسير حول الآية موضوع المقال، وأعجبت بما أورده السعدي رحمه الله لشمول ما ذكره؛ إذ قال: "ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى؛ أن الصلح بين مَن بينهما حق، أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح. وهو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً وإنما يكون جوراً، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان مع ذلك قد أمر الله به وحثّ عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه، وقوله: ﴿**وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ**﴾، أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخُلُق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك؛ والاقتناع ببعض الحق الذي لك، فمتى وفق الإنسان لهذا الخُلُق الحسن سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه

الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر، ثم قال: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تحسنوا في عبادة الخالق بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات، أو تحسنوا بفعل المأمور، وتتقوا بترك المحظور ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء"[٣٣].

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: الأسرة نواة المجتمع وأساس تكوينها، ومن مقاصد سورة النساء تكوين الأسرة المسلمة. والآية موضوع المقال جاءت للمحافظة على العلاقة الزوجية واستمرارها، والترغيب في الصلح بين الزوجين عند الخلاف طاعة لله تعالى لما في ذلك من الخير العظيم، ولما يترتب على الخلاف والانفصال من فساد عريض على الفرد والمجتمع. قال البقاعي رحمه الله: "من أعظم مقاصد

(٣٣) تفسير السعدي (ص: ٢٠٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سورة النساء التواصل والتقارب والإحسان لا سيما لذوي الأرحام، والعدل في جميع الأقوال والأفعال"[٣٤]. وأؤكد أن هناك علاقة قوية بين تماسك الأسرة المسلمة، وبين التزامها بشرع الله تعالى أمراً ونهياً، فكلما كان تأسيس الأسرة المسلمة على التوحيد والإيمان والتقوى كانت أكثر استقراراً وتماسكاً وتأثيراً إيجابياً في تطوير أفرداها والارتقاء بهم، وانعكس ذلك بشكل طبيعي على المجتمع والأمة بأسرها.

ثانياً: قول الله تعالى: ﴿**وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ**﴾ جاءت في سياق الإصلاح بين الزوجين، ولكن هي قاعدة عامة في إصلاح المجتمع وتماسكه والبعد عن الخلاف والمنازعة التي تؤدي إلى الفشل والتخلف، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ**﴾[٣٥]. قال ابن عطية رحمه الله: "وقوله تعالى ﴿**وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ**﴾ لفظ عام مطلق بمقتضى أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين على ما ذكرنا خير من الفُرقة[٣٦]. وقال ابن عثيمين رحمه الله:

---

(٣٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٢٢/ ٣٤٣).

(٣٥) الأنفال: ٤٦.

(٣٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢/ ١٢٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

" قوله: ﴿**وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ**﴾ هذه جملة عامة في كل شيء، في حقوق الزوجة، وحقوق الرحم، وحقوق المصاهرة، وحقوق الجوار، وحقوق المعاملة، فالصلح خير في كل شيء".

ثالثاً: أولت الشريعة الإسلامية الإصلاح في شتى المجالات عناية كبيرة، سواء داخل الأسرة، أو في المجتمع بشتى أطيافه، وكلما كانت الأسرة مستقرة والمجتمع مستقر يسودها الود والتسامح والصفاء كان ذلك دافعاً ومحفزاً للتطوير والارتقاء، فطبيعة النفس إذا انشغلت بالعداوات والانتقام فلا يتسع المجال لديها للفكر والإبداع، قال تعالى: ﴿**لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا**﴾[٣٧]. قال السعدي رحمه الله: "والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض"[٣٨]. وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبرُكم بأفضلَ من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ؛ قالوا: بلى، قال: إصلاحُ ذاتِ البينِ، وفسادُ ذاتِ

(٣٧) النساء: ١١٤.

(٣٨) تفسير السعدي (ص: ٢٠٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

البينِ الحالِقةُ"[٣٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إِيَّاكُمْ والبغضةَ؛ فَإِنَّهَا هِيَ الحالقةُ، لَا أَقُولُ لَكُمْ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، ولكن تحلق الدين"[٤٠]. وجميل قول القرطبي رحمه الله: "وجميع ما يقع عليه الصلح خير من الفرقة، فإن التمادي على الخلاف والشحناء والمباغضة هي قواعد الشر"[٤١].

رابعاً: من مهمات الشيطان الأساسية وأعظم وأخطر ما يسعى إليه هو وأعوانه من ذريته، ومن شياطين الإنس؛ تفكيك المجتمع، ونشر العداوة والبغضاء والكراهية، والتناحر بينهم حتى تَعُم الفوضى وتشيع الفاحشة؛ بل من أولوياته تفكيك الأسرة الواحدة، وإيجاد المنازعات بين الزوجين والأقارب والأرحام بمختلف درجاتهم، ويضع الحوافز المعنوية لأعوانه لمن يصل إلى درجة التفريق بين الرجل وأهله، فقد ثبت في الحديث الشريف، قول صلى الله عليه وسلم: "إنَّ إبليسَ يضعُ عرشَه على الماء، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقولُ: فعلتُ كذا وكذا، فيقولُ ما

---

(٣٩) شعيب الأرناؤوط، سنن أبي داود، باب: في إصلاح ذات البين رقم: ٤٩١٩.

(٤٠) الألباني، صحيح الأدب المفرد، باب: التحاب بين الناس، رقم: ٢٦٠.

(٤١) تفسير القرطبي (٥/ ٤٠٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صنعتَ شيئًا، ويجيءُ أحدُهم فيقولُ: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينَه وبين أهلِه، فيُدْنِيه منه، ويقولُ: نعم أنتَ"(١).

خامساً: نبه القرآن الكريم إلى عداوة الشيطان المتأصلة لبني آدم، وحرصه الدائم على إيجاد الفتن والعداوات بينهم، قال تعالى: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا**﴾(٢). قال ابن كثير رحمه الله: "يأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر، والمخاصمة، والمقاتلة؛ فإن الشيطان عدو لآدم وذريته"(٣). وقال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ**﴾(٤). وتخصيص الخمر والميسر هنا يعود إلى شدة أثرهما في حصول العداوة والبغضاء؛ لأن الخمر يُذهب بالعقل ويُثير النزاعات، والميسر

---

(١) صحيح مسلم، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس رقم: ٢٨١٣.

(٢) الإسراء: ٥٣.

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٨٠).

(٤) المائدة: ٩١.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

يولد الحقد والحسد بسبب خسارة المال، وعموماً أن دور الشيطان ليس محصورًا في استخدام الخمر والميسر فقط لإيجاد العدوات والبغضاء بين الناس، بل وظيفته الأساسية إضلال بني آدم وزرع الفتن بينهم بجميع الوسائل الممكنة، من الغيبة والنميمة، والتحريش بينهم، قال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ"(١).

سادساً: الواجب على الزوجين والأرحام خاصة والناس عامة الحذر من كيد الشيطان ومكره في إثارة العداوة والبغضاء وإشعال الفتن في كافة علاقاتهم، وقد تكون لأتفه الأسباب، ويقع بسببها خصومات ومظالم وعدوات خطيرة وعنيفة تمدد سنوات طويلة ذات تأثير قوي عليهم وربما على أجيالهم ومجتمعهم، والأولى المبادرة بالعفو والتسامح والصلح والاجتهاد في صد كل أبواب المنازعات من بدايتها قبل تفاقمها، والأولى الرجوع لأهل العلم والاختصاص في معالجة ما يظهر من مشكلات في أوساط المجتمع، وفي محيط الأسرة، والأقارب، والأرحام.

(١) صحيح مسلم، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، رقم: ٢٨١٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سابعاً: إن الحرص على الإصلاح والصفح والعفو خُلق نبيل من أخلاق نبينا صلى الله عليه وسلم، وقد مدحه الله تعالى في أخلاقه، فقال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[1]. والسيرة النبوية زاخرة بنماذج من صفح النبي صلى الله عليه وسلم عمن آذاه، سواء في المرحلة المكية، أو المدنية، استجابة لقول الله تعالى: ﴿**فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ**﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿**فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾[3]. وصدق أحمد شوقي حين قال:

المصلحون أصابعٌ جمعت يداً ... هي أنت بل أنت اليدُ البيضاءُ

والواجب على المسلمين التأسي بنبيهم صلى الله عليه وسلم في كافة أخلاقه؛ امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا**﴾[4]. قال ابن

---

(١) القلم: ٤.

(٢) الحجر: ٨٥.

(٣) المائدة: ١٣.

(٤) الأحزاب: ٢١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كثير رحمه الله: "هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله"(١).

ثامناً: لما كانت النفس في حالة ضعفها وتسلط الشيطان عليها تميل إلى حب الانتقام والتشفي وتأبى الاستجابة الصلح، أو المبادرة إليه، جاء القرآن الكريم مبيناً ذلك؛ وساعياً إلى تهذيب النفس بالترغيب في الصلح وترك شح النفس لمخالفة ذلك لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، ووعد الله تعالى بمجازاة من اتقى وأحسن بقبول الصلح لوجه الله تعالى فإن جزاه عظيم، وأجره كبير، والله يحب المحسنين، قال تعالى: ﴿**وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾. قال ابن عثيمين رحمه الله: "﴿**وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ**﴾ يعني: أنه عند النزاع وطلب المصالحة تكون الأنفس شحيحة، كل نفس تريد أن يكون الصلح في جانبها وفي مصلحتها، وكأن الله يقول: دعوا هذا الشح الذي أحضرته الأنفس، واطلبوا الخير في المصالحة، وقوله: ﴿**وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾، إن تحسنوا فيما بينكم بفعل المطلوب، وتتقوا بترك

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المحظور، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ وسيجازيكم على الإحسان وعلى ما اتقيتموه".

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٦)

الإثم: ظاهره وباطنه في ميزان الحساب

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإثم: ظاهره وباطنه في ميزان الحساب

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾[١].

تمهيد:

حرصت الشريعة الإسلامية على تنظيم حياة الإنسان بما يحفظ كرامته ويحقق له الأمن والسعادة في الدنيا والآخرة، ومن أبرز صور هذا الحفظ دعوته إلى توحيد الله تعالى، وطاعته فيما أمر، والابتعاد عن نواهيه من الذنوب والمعاصي بجميع درجاتها، كبيرها وصغيرها، ويُعد الشرك بالله في مقدمة ما حرّمه الله، لأنه يناقض الغاية العظمى من بعثة الرسل، وهي دعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[٢]. فأي تقصير في ترسيخ التوحيد يُمهّد لانتشار العقائد الباطلة، ويؤدي إلى استبدال الحق

---

(١) الأنعام: ١٢٠.

(٢) النحل: ٣٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بالباطل، وهو نذير سوء للفرد والمجتمع، بل وقد يكون سببًا في حلول عقاب الله، قال الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾(٣). وقد فسّر العلماء الظلم في هذا الموضع بأنه الشرك، كما جاء في قول ابن عاشور رحمه الله: "والظّلم: الاعتداء على حقّ صاحب حقّ، والمراد به هنا إشراك غير الله مع الله في اعتقاد الإلهية وفي العبادة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ**﴾(٤) لأنَّه أكبر الاعتداء، إذ هو اعتداء على المستحقّ المطلق العظيم، لأنّ من حقّه أن يفرد بالعبادة اعتقاداً وعملاً وقولاً لأنّ ذلك حقّه على مخلوقاته"(٥).

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال السعدي رحمه الله: "المراد بالإثم: جميع المعاصي، التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم، والحرج، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، فنهى الله عباده، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد، ترك المعاصي

---

(٣) الأنعام: ٨٢.

(٤) لقمان: ١٣.

(٥) التحرير والتنوير (٧/ ٣٣٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الظاهرة والباطنة، إلا بعد معرفتها، والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلمُ بذلك واجباً متعيناً على المكلف، وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة، ثم أخبر تعالى، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلَّت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته"[٦].

وقال الجزائري رحمه الله: "يأمر تعالى عباده بترك ظاهر الإثم؛ كالزنى العلني وسائر المعاصي، وباطن الإثم؛ كالزنى السري وسائر الذنوب الخفية، وهو شامل لأعمال القلوب وهي باطنة، وأعمال الجوارح وهي ظاهرة، لأن الإثم كل ضار فاسد قبيح كالشرك، والزنى وغيرهما من سائر المحرمات"[٧].

---

(٦) تفسير السعدي (ص: ٢٧١).

(٧) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ١١١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: تكررت في القرآن الكريم آيات كثيرة متشابهة مع الآية موضوع المقال، وكلها تحث على اجتناب المحرمات، بأساليب لفظية متقاربة في المعنى تتناسب مع سياق كل موضوع، ومن هذه الآيات؛ قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ**﴾[٨]، وقوله عز وجل: ﴿**قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ**﴾[٩]، وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ**﴾[١٠]. وقد جاء هذا المعنى كذلك مؤكداً في السنة النبوية المطهرة؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم: "لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ، وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ"[١١].

---

(٨) الأنعام: ١٥١.

(٩) الأعراف: ٣٣.

(١٠) النحل: ٩٠.

(١١) صحيح البخاري، باب: قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾، حديث رقم: ٤٣٥٨، صحيح مسلم، باب: غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، حديث رقم: ٢٧٦٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثانياً: من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده، أنه جعل طمأنينة القلوب وسعادتها في طاعته والقرب منه، وربط راحة النفس وسعة العيش باتباع صراطه المستقيم، أما من أعرض عن ذكر الله، وابتعد عن طاعته، فقد توعّده الله تعالى بضيق المعيشة، كما قال في محكم كتابه العزيز: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾[١]. وقد أوضح ابن القيم رحمه الله ما تخلّفه المعاصي من آثار سيئة وعواقب وخيمة، فقال: "للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، ومنها: حرمان الرزق، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي، ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها، ومنها: الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس، ولاسيما أهل الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم"[٢]. كما أشار رحمه الله إلى أن آثار الذنوب لا تقتصر على الأفراد، بل تتعداهم

(١) طه: ١٢٥.

(٢) الجواب الكافي، ص ٥٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لتصيب المجتمع والبيئة، فقال: "من آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن، قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾(١)"(٢).

ثالثاً: من طبيعة الإنسان الضعف والتقصير، فقد تزلّ قدمه ويقع في المحرمات، نتيجة تسلط الشيطان عليه، واستسلامه لنفسه الأمارة بالسوء، وهذا أمر وارد، كما دلّ على ذلك عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كلُّ ابْنِ آدمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوابُونَ"(٣). بل إن الزلل قد يقع حتى من أهل التقوى، ولكن سرعان ما يستفيقون من غفلتهم، فيسارعون إلى التوبة والإنابة، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ**﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ**

(١) الروم: ٤١. ولمن أراد التوسّع في هذا الباب، فكتاب الجواب الكافي يعد مرجعًا ثريًا، وخاصة الصفحات من ٤٢ إلى ١٢٥.

(٢) الجواب الكافي، ص ٦٤.

(٣) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، الترغيب في التوبة والمبادرة بها وإتْباع السيئة الحسنة، حديث رقم: ٣١٣٩.

(٤) آل عمران: ١٣٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾(١)، وقد بيّن ابن تيمية رحمه الله هذه الحقيقة بقوله: "ليس من شرط المتّقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب؛ فإن هذا لو كان كذلك لم يكن في الأمة مُتّق! بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين، ومن فعل ما يُكفّر سيئاته دخل في المتّقين"(٢).

رابعاً: تتكرر في النصوص الشرعية مصطلحات متعددة تشير إلى المحرمات، وهي مترادفة في بعض السياقات، لكنها تتفاوت دلالةً بين العموم والخصوص، ومن المهم الوقوف على معانيها اللغوية لفهمها بدقة، ومن أبرز هذه المصطلحات: "**الإثم، المعصية، الذنب، الخطيئة، السيئة، الوزر، الفاحشة**"، وقد أوضح الدكتور فريد الزامل –المستشار اللغوي– دلالات هذه المصطلحات بقوله: "الإثم: في الأصل يدل على التقصير، ومنه سُميت الخمر "إثمًا" لأنها تقصر بصاحبها لذهابها بعقله، المعصية: هي مقارفة العصيان ومخالفة الأمر، الذنب: ما يعاب الإنسان عليه ويستوجب اللوم، الخطيئة: الوقوع في الخطأ، والفرق بينها وبين الإثم بأن الإثم يكون عن عمد، والخطيئة: قد تقع من غير قصد، السيئة: هي فعل السوء ويقابل الحسنة، الوزر: الحمل الثقيل، ومنه قوله تعالى:

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) منهاج السنة، (٧/٨٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾(١)، أي: أثقالها، من السلاح، الفاحشة: ما تجاوز الحد في القبح، وتطلق على الذنوب العظيمة، وكل ما اشتد قبحه يُسمى فاحشة"(٢). وعمومًا يؤكد ابن باز رحمه الله أن هذه المصطلحات مترادفة ومتقاربة، إذ يقول: "هذه أشياء متقاربة، السيئة، والخطيئة، والإثم، والذنب، كلها متقاربة، يعني: المعصية، يقال لها: المعصية: ذنب، ويقال لها: خطيئة، ويقال لها: إثم، ويقال لها: ذنب، كلها مترادفة متقاربة"(٣).

خامساً: من فضل الله تعالى وكرمه ورحمته بعباده أن جعل باب التوبة مفتوحًا على مصراعيه، لا يُغلق في وجه أحد، مهما بلغت ذنوب العبد وآثامه، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، كثيرة أم قليلة، ظاهرة أم خفية، بل إن من رحمته سبحانه أنه يحب التوابين، كما قال في محكم كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾(٤). وجاء في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ

---

(١) محمد: ٤.

(٢) ما الفرق بين الإثم والمعصية والخطيئة والذنب والوزر والسيئة والفاحشة؟ استشارة رقم: ٥٨٠٠.

(٣) ما الفرق بين الخطيئة والسيئة والذنب والإثم؟ موقع الإمام ابن باز رحمه الله.

(٤) البقرة: ٢٢٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بِالْفَلَاةِ"[1]. وعلق النووي رحمه الله على ذلك قائلاً: "المراد هنا أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشد مما يرضى واجد ضالته بالفلاة. فعبر عن الرضا بالفرح، تأكيداً لمعنى الرضا في نفس السامع ومبالغة في تقريره"[2].

سادساً: من أرجى آيات التوبة وأعمقها في الدلالة على سعة رحمة الله تعالى، ما جاء في البلاغ الرباني الكريم إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، مفعمًا بأروع معاني اللطف والرحمة: ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**﴾[3]. وعلّق ابن عاشور رحمه الله على بديع أسلوب هذه الآية بقوبه: "ابتداء الخطاب بالنداء، وعنوان العباد مؤذن بأن ما بعده إعداد للقبول وإطماع في النجاة"[4]. وعن تفسير الآية الكريمة قال ابن كثير رحمه الله: "هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن

(١) صحيح مسلم، باب: في الحض على التوبة والفرح بها، حديث رقم: ٢٦٧٥.

(٢) شرح النووي على مسلم، (١٧/ ٦٠).

(٣) الزمر: ٥٣.

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٤٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كانت مهما كانت، وإن كثرت، وكانت مثل زبد البحر"[١]. كما أكد ابن تيمية رحمه الله هذا المعنى بقوله: "فلا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت، فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب، وقد دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب، فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه"[٢].

سابعاً: للصلاة مكانة عظيمة في الإسلام، فهي عبادة جليلة، بل هي عمود الدين، وهوية المسلم، وقرة عينه، وتأتي في المرتبة العظمى بعد الشهادتين، إذ إنها الصلة الوثيقة بين العبد وربه، ومصدر قوته، وبوابة صلاحه، ومفتاح استقامته على منهج الله تعالى، وسبب فلاحه في الدنيا والآخرة، ومتى صلحت صلح سائر عمله، وقد رفع الإسلام من شأنها، وأكد أهمية المحافظة عليها في أوقاتها المشروعة، فقال تعالى: ﴿**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ**﴾[٣]. وجاء في الحديث الشريف عن صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٩٥).

(٢) الفتاوى الكبرى (١/ ١١١).

(٣) البقرة: ٢٣٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ"(١). ولشدة تعلق النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة، كان إذا حزبه أمر فزع إليها، كما ثبت عنه: "كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى"(٢). وكان يقول لبلال: "يا بلالُ، أقِمِ الصَّلاةَ، أرِحْنا بها"(٣).

ثامناً: من المعلوم أن الدنيا لا تخلو من المنغصات والابتلاءات، فهي دار الأكدار والهموم، والله تعالى العليم الحكيم قد شرع لنا ما نعين به أنفسنا في مواجهتها، ومن أعظم ما وجّه إليه سبحانه عباده: الاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال جل وعلا: ﴿**وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ**﴾(٤). قال الشنقيطي رحمه الله في تفسيره: "الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة لا إشكال فيها، وأما نتيجة

(١) الترمذي، باب: ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، حديث رقم: ٤١٣، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) أبو داود، باب: وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، حديث رقم: ١٣١٩، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قرة.

(٣) أبو داود، باب: في صلاة العتمة، حديث رقم: ٤٩٨٥، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قرة.

(٤) البقرة:٤٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الاستعانة بالصلاة، فقد أشار لها تعالى في آيات من كتابه، فذكر أن من نتائج الاستعانة بها النهي عما لا يليق، وذلك في قوله: ﴿**إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ**﴾[١]، وأنها تجلب الرزق وذلك في قوله: ﴿**وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ**﴾[٢]. ولذا كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة". ويضيف رحمه الله أيضاً: "وإيضاح ذلك: أن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه، ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله ورهبة منه، فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه"[٣]. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أشرف الخلق وأعلاهم مقامًا، يضيق صدره بما يلقاه من أذى المشركين وهموم الدعوة، فكان توجيه الله له: ﴿**وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ**﴾[٤]. وقال الطبري رحمه الله في تأويل ذلك: "فافزع فيما نابك من أمر تكرهه منهم إلى الشكر لله والثناء عليه والصلاة، يكفك الله من

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) طه: ١٣٢.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٣٥).

(٤) الحجر: ٩٧-٩٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ذلك ما أهمك وهذا نحو الخبر الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه "كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة"(١).

تاسعاً: إن لذكر الله تعالى منزلة عظيمة وفضلاً كبيرًا في الإسلام، فقد حثت عليه نصوص كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لما فيه من حياة للقلوب وطمأنينة للنفوس، يقول الله عز وجل: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾(٢). وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم فضل الذكر وأهله، فقال: "سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ. قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات"(٣). كما وعد الله تعالى الذاكرين والذاكرات بالمغفرة والأجر العظيم، فقال: ﴿**وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾(٤). فالحرص على الإكثار من ذكر الله دليل على صلاح القلب واستقامة الحال، وسبب للفوز برضا الله في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ١٥٩).

(٢) الأحزاب: ٤١.

(٣) صحيح مسلم، باب: الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم: ٢٦٧٦.

(٤) الأحزاب: ٣٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عاشراً: لما كان لذكر الله تعالى والصلاة هذا المقام الرفيع والفضل العظيم، كانا من أعظم الحواجز التي تحصن الإنسان عن الوقوع في الفواحش والمنكرات، كما قال تعالى: ﴿**وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ**﴾(١). وقد يتساءل البعض: كيف تنهى الصلاة وذكر الله من الوقوع في الفواحش والمنكرات؟ والجواب: أن من حافظ على الصلاة، وداوم على ذكر الله وأخلص فيه، فإن ذلك من علامات تقوى القلوب، كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ**﴾(٢). فكلما كانت الصلاة أقرب إلى هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وأكثر تحقيقًا للإخلاص والخشية، أورثت صاحبها خشية لله، وبعدًا عن المحرمات. وقد أورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية قول أبي العالية(٣) رحمهما الله تعالى: "أن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة، وهي: الإخلاص، والخشية، وذكر الله؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف،

---

(١) العنكبوت:٤٥.

(٢) الحج: ٣٢.

(٣) أبو العالية، رفيع بن مهران، تابعي مقرئ ومفسر، توفي ٩٦ هـ، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤/٢٠٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر القرآن يأمره وينهاه"(١). وقد يقال: لماذا نرى بعض الناس يصلّون، ومع ذلك لا يزالون يقعون في المعاصي والمنكرات؟ فأجاب ابن عثيمين رحمه الله على ذلك، فقال: "إذا لم تنهك الصلاة عن الفحشاء والمنكر فإنك لم تقمها، ويجب أن نحاسب أنفسنا عليها فلا نقول: إننا أقمنا الصلاة حتى ننظر آثارها، فإذا وجدنا أن القلوب لم تتغير ولم تكره الفحشاء والمنكر بفعل الصلاة، علمنا أننا مقصرون في إقامتها، وإلا لو أقمناها لكانت النتيجة كما أخبر الله عز وجل". وخلاصة ما تقدم: أن عناية المسلم بالصلاة والذكر، أداءً وخشوعًا، فرضًا ونفلًا، سبب في القرب من الله تعالى، ونيل محبته ورعايته وحفظه في الدنيا والآخرة.

الحادي عشر: من أقوى أسلحة الدمار الشامل المعينة على نشر الفحشاء وتغذيتها وتزيينها للناس بمختلف أعمارهم وأجناسهم بكل الوسائل الخبيثة والمناسبة لهم، ما يفعله الشيطان -لعنه الله- من مكر وخداع، ومن مكره وقوة خِداعه أنه قد لا يأتي بصورة مباشرة، بل يتسلل بأساليب خفية ماكرة، يُزين بها الباطل، ويُلبِسه ثوب الحق، حتى يكسب ثقة فريسته، ثم يورده المهالك بعدائه وخبثه وقوة بطشه، وإذا وقع الفأس في الرأس تبرأ منهم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٥٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا ما يُجسّده القرآن الكريم في قصة غزوة بدر الكبرى، حين قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١).

فانظر كيف خدعهم وأوهمهم بالنصرة والوقوف إلى جانبهم، ثم تنصل منهم وتبرأ، بعدما أوقعهم في الفتنة، وهذا دأبه، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾(٢). فالحذر الحذر من مكر الشيطان وتلبيسه، فإنّ أعظم ما يملكه هو إغواء القلوب وتزيين المعاصي، ولا ينجو من كيده إلا من عصمه الله واهتدى بنوره.

الثاني عشر: ولما كان الشيطان هو العدو المبين لبني آدم، فقد اتخذ لنفسه هدفًا دائمًا: إغواء الإنسان وإضلاله عن طريق الحق، فتراه متربصًا به على أبواب الخير، يترصده كلما همّ بالطاعة، أو أراد القرب من الله تعالى، ليصرفه عنها بمكره ووسوسته. وقد صوّر القرآن الكريم ذلك في مشهد عظيم، حيث قال تعالى على لسان إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ

---

(١) الأنفال: ٤٨.

(٢) النساء: ١٢٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ٱلۡمُسۡتَقِيمَ، ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾(١). لكن رحمة الله تعالى بعباده عظيمة، فقد كشف مكر الشيطان، وبيّن سبيل نجاتهم منه، محذرًا في آيات كثيرة من اتباع خطواته، فقال سبحانه: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ، إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ**﴾(٣)، وحذّر المؤمنين خاصة بقوله عز وجل: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ**﴾(٤).

الثالث عشر: يُعدّ ذكر الله تعالى والمحافظة على الصلاة من أعظم العبادات التي يتقرّب بها العبد إلى ربه، وهما في ذات الوقت من أقوى الوسائل التي تحصّن النفس من وساوس الشيطان وتردّ كيده، ولهذا، يسعى

---

(١) الأعراف: ١٦-١٧.

(٢) البقرة:١٦٨-١٦٩.

(٣) البقرة: ٢٦٨.

(٤) النور: ٢١. انظر: بتوسع عداوة الشيطان في كتابي بعنوان: اتخذوه عدواً – تنبيهات مهمة للتصدي لعداوة الشيطان، موقع الألوكة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الشيطان بكل ما أوتي من مكرٍ وخبث إلى صرف المسلم عنهما، كما نبّه القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾(١). وبيّن الله سبحانه في موضع آخر خطورة الإعراض عن ذكره، وما يترتب عليه من تسلط الشيطان على الإنسان، فقال سبحانه: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ**﴾(٢). قال ابن باز رحمه الله: "من يغفل، ويعرض عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يُقيِّض له الشيطان -نسأل الله العافية- من غفل عن ذكر الله، وعن قراءة القرآن، وعن طاعة الله من الصلوات، وغيرها؛ قَيَّض الله له الشياطين حتى تصُدَّه عن الحق، وحتى تلهيه في الباطل -نعوذ بالله- ومن قام بأمر الله، وأدى حق الله، واستعمل نفسه في ذكر الله، وطاعة الله، عافاه الله من الشيطان، وحفظه من الشياطين، نسأل الله السلامة". وعليه، فالواجب على المسلم أن يجاهد نفسه، ويحرص أشد الحرص على المحافظة على الصلاة، فهي عماد الدين، واستجابة لأمر الله تعالى القائل: ﴿**حَٰفِظُواْ عَلَى**

---

(١) المائدة: ٩١.

(٢) الزخرف: ٣٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[١]، فمن حافظ على ذكر الله والصلاة، حفظه الله من الشيطان، وألهمه السداد والثبات، وكان في معية الرحمن.

---

(١) البقرة: ٢٣٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٧)

اللّه يفعل ما يشاء بحكمة وعدل

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الله يفعل ما يشاء بحكمة وعدل

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[١].

تمهيد:

تحمل هذه الآية الكريمة تأكيدًا على كمال قدرة الله تعالى وعظمته، وتغرس في الإنسان معاني الامتثال والاستسلام لأمره، والثقة المطلقة بعدله ورحمته عز وجل. وهذا الإدراك يثمر أثرًا عميقًا في تهذيب النفس واستقامتها، حيث يدفعها إلى اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، إيمانًا بأن مشيئته نافذة وحكمته بالغة.

وهناك آيتان تشتركان مع هذه الآية في المعنى، وهما قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[٢]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[٣]. وتتفق هذه الآيات الثلاث في التأكيد على القدرة المطلقة لله تعالى ومشيئته النافذة، إلا أن سياقاتها تختلف؛ فآية سورة هود جاءت في سياق الحديث

(١) هود: ١٠٧.

(٢) البروج: ١٦.

(٣) الحج: ١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن العذاب، تأكيدًا على أن الله يُمضي حكمه وفق مشيئته العادلة، وآية سورة الحج وردت في سياق الثواب، مما يدل على تحقيق وعد الله لعباده المؤمنين، وآية سورة البروج جاءت مطلقة، دون تقييد بثواب أو عقاب، مما يرسّخ المفهوم العام لسلطان الله التام وإرادته المطلقة في الكون.

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال ابن كثير رحمه الله: "﴿**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ أي: مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله"(٤).

وقال السعدي رحمه الله: "﴿**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ فكل ما أراد فِعْلَه واقتضته حكمته فَعَلَه، تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده"(٥). وقال في موضع آخر عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾(٦): أي: "مهما أراد شيئًا فعله، إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وليس أحد فعالاً لما يريد

---

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٦٦).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٣٩٠).

(٦) البروج: ١٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلا الله، فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئًا، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد"(٧).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: تؤكد الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ على ترسيخ عقيدة التوحيد في النفوس، وتُعَزز الإيمان بقدرة الله تعالى المطلقة وعظمته وسلطانه الذي لا حدَّ له ولا منتهى، فهو فعّال لما يريد، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، وعلى كل شيء شهيد، وبكل شيء محيط، وإليه يرجع الأمر كله، وهو أحكم الحاكمين، كل ما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى تحت تصرفه وسلطانه وقهره، لا يقع شيء في الكون كله إلاّ بعلمه وإرادته، الملك ملكه، والأمر أمره، والتدبير تدبيره، لله الأمر من قبل ومن بعد، لا حول ولا قوة إلا بالله، جلّ جلاله، وعَظُمَ سلطانه، وتقدَّست أسماؤه، وصدق الله العظيم: ﴿**إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ. فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ**

(٧) تفسير السعدي (ص: ٩١٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿تُرْجَعُونَ﴾(٨). قال ابن كثير رحمه الله: "أي: يأمر بالشيء أمراً واحداً، لا يحتاج إلى تكرار؛ إذا ما أراد الله أمرًا فإنما يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾"(٩).

ثانياً: إذا ترسخت عقيدة التوحيد الصافية في النفوس قوي جانب التوكل على الله تعالى. ومن صفات المؤمنين التي ذكرها القرآن الكريم؛ قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١٠). قال ابن كثير رحمه الله: "أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير رحمه الله: التوكل على الله جماع الإيمان"(١١). ولا شك أن التوكل على الله تعالى يبعث على السكينة والرضا، قال ابن القيم رحمه الله: "القوة كل القوة في التوكل على الله، كما قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، فالقوة مضمونة

(٨) يس: ٨٢- ٨٣.
(٩) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٣١).
(١٠) الأنفال: ٢.
(١١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

للمتوكل والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما نقص من التقوى والتوكل"[١٢].

ثالثاً: إن ذكر اسم "**الرب**" في قوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ**﴾ دون غيره من أسمائه الحسنى، يعكس ارتباطه العميق بعموم معنى الآية، ويدل على قربه الشديد من عبده، لأن اسم "**الرب**"؛ كما قال الطبري رحمه الله: "فربنا جل ثناؤه: السيد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر"[١٣]. وقال ابن القيم رحمه الله: "الرب هو: السيد، والمالك، والمنعم، والمربي، والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها"[١٤].

رابعاً: تأكيداً للفقرة "**ثالثاً**"، وبالمثال يتضح المقال؛ إذا طلب أحد الأولاد من والده أمرًا معينًا، كالزواج في سنٍّ مبكرة، أو السفر إلى الخارج، أو شراء سيارة، فإن الوالد الذي رباه من صغره أدرى بحال ولده وإمكاناته النفسية، والجسمية، والعقلية، والمالية، فقد يمتنع الأب عن تحقيق هذا

---

(١٢) زاد المعاد، ج٣، ص ٤٣٤.

(١٣) تفسير الطبري (١/ ١٤٢).

(١٤) بدائع الفوائد (٤/١٣٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الطلب في حينه؛ لأنّه قد لا يكون مناسبًا أو قد يُسبب ضررًا، ولله المثل الأعلى، فالله سبحانه وتعالى عليم حكيم خبير، وهو أرحم بالعبد من والديه، فيمنع عنه ما يطلبه أحيانًا لحكمة يعلمها، وقد يؤخر الإجابة لوقتٍ يكون فيه الخير والبركة، قال صلى الله عليه وسلم: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"(١٥). وفي هذا السياق يشير ابن القيم رحمه الله "فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، ساءه ذلك القضاء أو سره، فقضاؤه لعبده المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وعافية وإن كانت في صورة بلية"(١٦).

خامساً: يفتح قوله تعالى: ﴿**لِّمَا يُرِيدُ**﴾ باب التساؤل حول ماهية إرادة الله تعالى، وما أنواعها؟ وقد وضّح الشيخ ابن باز رحمه الله ذلك ببيان شافٍ، فقال: "لله سبحانه إرادتان: إرادة قدرية وإرادة شرعية، فالإرادة القدرية هي التي سبق بها علم الله، وهي نافذة لا محالة، كما قال تعالى:

---

(١٥) صحيح مسلم، باب: المؤمن أمره كله خير، حديث رقم: ٢٩٩٩.

(١٦) مدارج السالكين، (٤/ ٢١٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١٧]. ومن شواهدها أيضًا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[١٨].

أما الإرادة الشرعية، فهي متعلقة بما يحبه الله ويرضاه لعباده، وقد لا تقع دائمًا، لأنها مرتبطة باختيار العبد، ومن أدلتها قوله جل وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[١٩]، وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾[٢٠]. فالله أراد اليسر لعباده، وأمرهم بما فيه راحتهم، لكن بعضهم قد لا ينال هذا التيسير لعدم امتثاله، وبناءً على ذلك، فإن العبد المطيع الموحد قد اجتمعت فيه الإرادتان: فهو موافق للإرادة الكونية، لأنه أطاع الله بإرادته، وموافق للإرادة الشرعية لأنه نفّذ ما أمره الله به، أما العاصي، فقد وافق الإرادة الكونية، لكنه خالف الإرادة الشرعية"[٢١].

---

(١٧) يس:٨٢.

(١٨) الأنعام:١٢٥.

(١٩) البقرة:١٨٥.

(٢٠) النساء:٢٨.

(٢١) فتاوى الجامع الكبير، الفرق بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الدينية الشرعية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سادساً: تتجلى إرادة الله تعالى الشرعية في المنهج المتكامل الذي وضعه لعباده، مبيّنًا لهم طريق الاستقامة وما ينبغي عليهم فعله أو اجتنابه، فقال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ**﴾[٢٢]. ومن أراد الله به خيرًا يسّر له اتباع أوامره واجتناب نواهيه، فحصلت له الهداية، كما قال تعالى: ﴿**وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ**﴾[٢٣]، وبالهداية للإيمان والعمل الصالح ينال الإنسان خيري الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾[٢٤]. وعلّق المراغي رحمه الله على قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ فقال: "أي: من إكرام من يطيعه وإهانة من يعصيه، لا رادّ لحكمه، ولا مانع لقضائه، فهو يعطى المتقين ضروباً من الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال: ﴿**فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ**﴾[٢٥]. ويدخل

---

(٢٢) الأنعام: ١٥٣.

(٢٣) النور: ٥٤.

(٢٤) الحج: ١٤.

(٢٥) النساء: ١٧٣.

الكافرين ناراً وقودها الناس والحجارة، لما دسّوا به أنفسهم من أنواع الرجس والفسوق"(٢٦).

سابعاً: تكمن إرادة الله الشرعية في هداية الإنسان إلى الخير والاستقامة، وفتح باب التوبة له عند تقصيره رحمةً منه سبحانه، وقد بيّن الله في كتابه العزيز أنه يريد لعباده الهداية والتوبة، فقال تعالى: ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ**﴾(٢٧)، وقوله سبحانه: ﴿**وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ**﴾(٢٨). وعلى النقيض من ذلك، فإن إرادة الشيطان وأهل الضلال تهدف إلى إيقاع الإنسان في العداوة والبغضاء، وجرّه إلى الفواحش والانحراف عن منهج الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ**﴾(٢٩)، وقوله جل جلاله: ﴿**وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا**﴾(٣٠). وعليه، فإن اتباع إرادة الله عز وجل هو السبيل إلى النجاة والفلاح، بينما الانقياد

(٢٦) تفسير المراغي (١٧/ ٩٦).

(٢٧) النساء: ٢٦.

(٢٨) النساء: ٢٧.

(٢٩) المائدة: ٩١.

(٣٠) النساء: ٢٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لإرادة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء يؤدي إلى الضلال والانحراف، مما يؤكد أهمية التمسك بمنهج الله والابتعاد عن أسباب الفساد والفتنة.

ثامناً: تشير العبارة القرآنية: ﴿**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ إلى كمال قدرة الله سبحانه، ويُستنبط منها مَلمحاً تربويًا بأهمية التحلي بالحزم والجد في العمل واتخاذ القرار، والسعي لتحقيق المطالب العليا بعزيمة وثبات، وهذا المعنى ينعكس في واقع الحياة، حيث لا تُنال المطالب بالأماني، بل بالجد والاجتهاد، كما قال أحمد شوقي رحمه الله:

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

والحزم والجد في العمل واتخاذ القرار ليس ارتجالاً، ولكن بحاجة إلى علم وخبرة واستشارة، وكلما كان الإنسان من الله سبحانه أقرب باتباع أوامره واجتناب نواهيه متزوداً بالعلم ومكتسباً للخبرات، كان موفقاً وأقرب للصواب في عمله وقراراته.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٨)

لا معين ولا ناصر وقت الشدة إلاّ اللّه

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لا معين ولا ناصر وقت الشدة إلاّ اللّه

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾(٣١).

تمهيد:

من اليقينيات التي يجب أن تَسْكُن في قلب ووجدان كل مسلم أن الدنيا ليست دار سعادة وراحة دائمتين، فهي: يوم بوجه، ويوم بوجه آخر عكسه تماماً، وصدق القائل:

طُبعَت على كدرٍ وأنت تريدُها ... صفوًا من الأقذاءِ والأكدارِ

والمؤمن التقي أكثر الناس معرفة بأحوال الدنيا والتعامل مع أَكْدَارِهَا، مُسترشداً بهدي النبي صلى الله عليه وسلم: "ما يُصِيبُ المسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ، ولَا هَمٍّ ولَا حُزْنٍ ولَا أذًى ولَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا مِن خَطَايَاهُ"(٣٢). قال ابن عثيمين رحمه الله: "الإنسان في هذه

---

(٣١) يوسف: ٨٦.

(٣٢) صحيح البخاري، باب: ما جاء في كفارة المرضى، حديث رقم: ٥٦٤١، صحيح مسلم، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حديث رقم: ٢٥٧٣.

الدنيا لا يمكن أن يبقى مسروراً دائماً، بل هو يوماً يُسر ويوماً يحزن، ويوماً يأتيه شيء ويوماً لا يأتيه، فهو مصاب بمصائب في نفسه ومصائب في بدنه، ومصائب في مجتمعه، ومصائب في أهله، ولا تحصي المصائب التي تصيب الإنسان، ولكن المؤمن أمره كله خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خير له"(٣٣).

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ حقيقة البث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها؛ وهو من بثثته: أي فرقته، فسميت المصيبة بثاً مجازاً. ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ قال قتادة: إني أعلم من إحسان الله تعالى إليّ ما يوجب حسن ظني به، وقيل: أعلم من إجابة دعاء المضطرين ما لا تعلمون"(٣٤).

---

(٣٣) شرح رياض الصالحين، باب: الصبر (١/ ٢٤٣).

(٣٤) تفسير القرطبي (٩/ ٢٥١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال ابن عاشور رحمه الله: "جملة ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مفيدة قصر شكواه على التعلق باسم الله، أي يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة، وهي عبادة؛ لأن الدعاء عبادة. والبث: الهمّ الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء. والحزن: الأسف على فائت؛ فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب عليه السلام لأنه كان مهتماً بالتفكير في مصير يوسف عليه السلام وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفاً على فراقه، وقد أعقب كلامه بقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ لينبّههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العَالية ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلّموه، أو يلوموه، أي: أنا أعلم علماً من عند الله علّمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوءة، وفي هذا تعريض بِرَدِ تعرضهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالاً سيقع"(٣٥).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: سنة الابتلاء من أعظم السنن التي يجب على الإنسان أن يتفقه فيها ويُلمَّ بها، وهي ملازمة له مسيرة حياته حتى مماته، وتختلف حدتها

(٣٥) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتنوعها من شخص لآخر لحكمة الله تعالى البالغة في تدبير شؤون خلقه. والآيات والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة جداً، منها؛ قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٣٧]، وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣٨]، وقال صلى الله عليه وسلم: "أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِهِ؛ فإِنْ كانَ فِي دِينِهِ صُلْباً اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وإنْ كانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على قَدْرِ دِينِهِ، فَما يَبْرَحُ البَلاءُ بالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي على الأَرْضِ وَمَا عليهِ خَطِيئَةٌ"[٣٩].

ثانياً: يأتي الابتلاء على أنواع، ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤٠]. والناس يختلفون في التعامل مع أنواع الابتلاء بحسب إيمانهم وتقواهم وصبرهم. ولما كان الأنبياء والرسل عليهم

---

(٣٦) آل عمران: ١٨٦.

(٣٧) الأنبياء: ٣٥.

(٣٨) الملك: ٢.

(٣٩) الألباني، الجامع الصغير وزياداته، حديث رقم: ٩٩٤.

(٤٠) البقرة: ١٥٥.

الصلاة والسلام أكثر الناس إيماناً وتقوى وصبراً وصلابة في دينهم لما حباهم الله تعالى من علم ومعرفة بعظمته وقدرته وحكمته وثقتهم الكاملة بصدق الله تعالى في نصرتهم والتفريج عنهم مهما اشتد بهم البلاء، مع ما أعده الله لهم من عظيم الأجر والثواب، ثم يأتي بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام "الأَمْثَلُ فَالأَمْثَل" كما جاء في الحديث الوارد في: "**أولاً**".

ثالثاً: تكرر في القرآن الكريم بعض التعابير المشابهة لقول يعقوب عليه السلام في الآية موضوع المقال: ﴿**وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ**﴾، منها: موقف نوح عليه السلام مع قومه؛ عندما حكى القرآن الكريم قوله: ﴿**وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ**﴾(٤١)، وكذلك موقف شعيب عليه السلام مع قومه عندما حكى القرآن الكريم قوله: ﴿**وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ**﴾(٤٢)، كل ذلك يُظهر أن علم الأنبياء عليهم السلام ومعرفتهم بالله تعالى مصدر قوتهم ويقينهم وثباتهم، وأعظم هادياً ومرشداً في دعوتهم لأقوامهم، وهو ما يجعلهم موقنين بصدق ما يبلغونه، حتى لو كان ذلك خافياً على الناس.

---

(٤١) الأعراف: ٦٢.

(٤٢) هود: ٨٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رابعاً: من الآثار الإيمانية لعلم ومعرفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بالله تعالى ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بذكر مواقفهم في الثبات على الدعوة إلى الله مهما كانت الظروف والأحوال؛ على سبيل المثال: موقف لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: عن أنس رضي الله عنه قال: حدثني أبو بكر رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم في الغار، فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: "مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا"(٤٣). قال ابن رجب رحمه الله: "هذه المعية الخاصة تقتضي: النصر، والتأييد، والحفظ، والإعانة"(٤٤). وكذلك موقف لموسى عليه السلام مع فرعون وقومه؛ ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾(٤٥). قال الطبري رحمه الله، "قوله تعالى: ﴿**قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾؛ أي: سيهدين لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه"(٤٦).

---

(٤٣) صحيح البخاري، باب: ما جاء في كفارة المرضى، حديث رقم: ٥٦٤١.

(٤٤) جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الحديث التاسع عشر، ص ٤٧١.

(٤٥) الشعراء: ٦١-٦٢.

(٤٦) تفسير الطبري (١٩/ ٣٥٦). وانظر بتوسع حول هذا الملمح: مقالاً للكاتب: "مواقف من حياة الأنبياء عليهم الصلاة وإسلام في ثباتهم واعتمادهم على الله"، موقع الألوكة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خامساً: من الدروس المهمة في الآية موضوع المقال أن الليل الطويل لابد أن ينجلي، فمن مسه كرب، أو شدة، من مرض، أو دَيْن، أو فَقْد عَزيز، وضاقت عليه الأرض بما رحبت؛ فليثق بالله العظيم القادر فارج الهم وكاشف الغم، أن ذلك سيزول بحول الله تعالى وقوته؛ فليس لها من دون الله كاشفة؛ قال تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا**﴾(٤٧). قال السعدي رحمه الله: "وَعُلِم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم، ويَظْهَرُ من ذلك فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما، أحسن العواقب، لقوله: ﴿**إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**﴾(٤٨)"(٤٩).

سادساً: لما كان الجزع والحزن طبيعة بشرية تعتري كل إنسان مهما بلغ من الصلاح والتقوى حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكن

---

(٤٧) الشرح: ٥-٦.

(٤٨) يوسف: ٩٠.

(٤٩) تفسير السعدي (ص: ٤١١).

يكون منضبطاً بالصبر وضبط النفس. ولقد بكى رسول صلّى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم، وقال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"(٥٠).

سابعاً: إن شكوى يعقوب في الآية موضوع المقال: ﴿**إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾، قال ابن عاشور رحمه الله: "الشكوى بهذا القصد ضراعة، وهي عبادة لأن الدعاء عبادة"(٥١). ويؤكده قوله صلى لله عليه وسلم: "إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ"(٥٢). وقال القرطبي رحمه الله: "وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى، وذلك قول يعقوب عليه السلام: ﴿**إِنَّمَآأَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾، أي: من جميل صنعه، وغريب لطفه وعائدته على عباده، فأما الشكوى على غير مشكٍ فهو السفه، إلا أن يكون على وجه البث والتسلي"(٥٣). وقال السعدي رحمه الله: "قوله: ﴿**إِنَّمَآ**

---

(٥٠) صحيح البخاري، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون)، حديث رقم: ١٢٤١، صحيح مسلم، باب: رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه، حديث رقم: ٢٣١٥.

(٥١) التحرير والتنوير (١٣/ ٤٤).

(٥٢) الألباني، الأدب المفرد، حديث رقم: ٧١٤.

(٥٣) تفسير القرطبي (٩/ ٢٥٢-٢٥٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه، الشكوى إلى المخلوقين"[١]. وقد دعا نبي الله تعالى أيوب عليه السلام ربه عندما مسه الضر؛ فحكى القرآن الكريم دعاءه: **﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾**[٢].

ثامناً: تفصيل الشكوى إلى المخلوقين؛ قال القرطبي رحمه الله: عند قوله تعالى: **﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾**[٣]، "قالوا: **﴿مَسَّنَا﴾**، أي: أصابنا **﴿وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾**، أي: الجوع والحاجة، وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر، أي: الجوع، بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع، كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه، ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط، والصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل"[٤]. وأوضح

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٤١١).

(٢) الأنبياء: ٨٣.

(٣) يوسف: ٨٨.

(٤) تفسير القرطبي (٩/ ٢٥٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأوضح ابن باز رحمه الله: "إذا كان الشكوى من باب المشورة، ومن باب الاستعانة بالرأي؛ فلا بأس بذلك، يشكو همومه، وحاجاته ليستعين برأيه، وإذا كان مضطرًا وسأل المساعدة فلا بأس".

تاسعاً: إن الإيمان بعظمة الله تعالى وقدرته يفتح للمؤمن أبواب الأمل وحُسن الظن بالله عز وجل على مصاريعها، فلا يتسرب اليأس والقنوط البتة في نفسه؛ لأنه مُوقن بفرج الله تعالى عند حدوث البلاء به مهما اشتد به، لأن القنوط من أخلاق الضالين عن هداية الله؛ كما قال تعالى: ﴿**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**﴾(١). قال السعدي رحمه الله: "من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه؛ لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً"(٢). ولذلك جاء التأكيد من يعقوب عليه السلام لأبنائه، ﴿**يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾(٣).

(١) الحجر: ٥٦.

(٢) تفسير السعدي (ص: ٤٣٢).

(٣) يوسف: ٨٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عاشراً: يجب على المؤمن في قضاء حوائجه، دِقّها وجلها يستعين بالله تعالى أولاً، ثم يحرص على الأخذ بالأسباب المادية الظاهرة ويجتهد في ذلك كل اجتهاده، ولكن في حالة العجز الكامل عن حصول المطلوب، أو دفع المكروه، ماذا عليه أن يعمل؟ قال الشعراوي رحمه الله: "إذا كانت المسألة تَعزُّ على خَلْق الله؛ لابد أن يفزع فيها الإنسان إلى الله؛ ولذلك علَّمنا صلى الله عليه وسلم أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة(١)، وحَزَبه أمر ما، يعني: أن مواجهة هذا الأمر تفوق أسباب الإنسان؛ فيلجأ إلى المسبِّبِ الأعلى؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام ﴿**وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾(٢)"(٣). ولنا في قصة زكريا عليه السلام أعظم العبر عندما دعا الله تعالى بطلب الولد مع كبر سنه وزوجه عاقراً، فجاءته البشرى من الله تعالى: ﴿**يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾(٤). وحكى القرآن الكريم عن زكريا عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ**

---

(١) الألباني، صحيح أبي داود، باب: وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، حديث رقم: ١٣١٩.

(٢) يوسف: ١٨.

(٣) تفسير الشعراوي (١١/ ٦٨٩٢).

(٤) مريم: ٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾(١). قال ابن كثير رحمه الله: "**﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾**، أي: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، ولا يتعاظمه أمر"(٢).

الحادي عشر: أهمية التأسي بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قوة إيمانهم ويقينهم بالله تعالى، وفي مقدمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: **﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾**(٣). ولا يتأتى ذلك بعد توفيق الله تعالى إلا بقراءة سيرته العطرة وما فيها من عبر وأحداث في كافة مجالات الحياة؛ لتكون خارطة طريق وصمام أمان في مواجهة مصاعب الحياة وفتنها.

الثاني عشر: يجب أن يعتني المسلم بتقوية إيمانه، فهو سفينة النجاة في أمواج الحياة العاتية، وصدق القائل:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبَس

---

(١) آل عمران: ٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣).

(٣) الأحزاب: ٢١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد ذكر ابن باز رحمه الله جملة من الأسباب المهمة لتقوية الإيمان. وجدير بالمسلم العناية بها ووضعها موضوع التنفيذ، وفي مقدمتها:

الأول: تدبر القرآن الكريم، والعناية بقراءته، والإكثار من ذلك؛ لما فيه من القَصص العظيم عن الآخرة، والجنة والنار، وعن أسماء الله وصفاته، وعن أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأممهم، فمن تدبر القرآن؛ قوي إيمانه، واستقام له دينه.

الثاني: العناية بالأحاديث، وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وأخلاق الصحابة والأخيار، كونه يسمع الأحاديث، يسمع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأعماله، وأعمال الصحابة، ونشاطهم في الخير، وخوفهم من الله عز وجل، حتى يتأسى بهم، يتأسى بالأخيار، يعمل كأعمالهم، ويجتهد في ذلك.

الثالث: أن يحاسب نفسه، ويتذكر أن الموت يأتي بغتة، ماذا عمل؟ ماذا قدم لآخرته؟ حتى يعد العدة، قبل أن يهجم عليه الأجل؛ فإن محاسبة النفس، والنظر فيما أعده العبد للآخرة؛ مما يقوي إيمانه، ومما يعينه على طاعة الله ورسوله، ومما يعينه على البدار بالتوبة إلى الله من سيئات أعماله، وتقصيره.

www.alukah.net

الرابع: صحبة الأخيار، يصحبهم، ويجالسهم، فيستفيد من أخلاقهم، وعلمهم، ويذكرونه بالآخرة، ويعينونه على ذلك.

الخامس: حضور حلقات العلم، يلتمسها، ويحضرها، ويستفيد منها، وكذلك يصغي عند سماع الخطب، خطب الجمعة، وغيرها من الخطب النافعة، ومن إذاعة القرآن، يستمع إلى القرآن الكريم، يستمع المواعظ، والندوات المفيدة، حتى يستفيد من ذلك، وحتى يرق قلبه، ويقوى إيمانه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٩)

الإضلال بغير علم: وزر مضاعف يوم القيامة

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الإضلال بغير علم: وزر مضاعف يوم القيامة

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[١].

تمهيد:

من أعظم صور الحرمان، وأشد دلائل قلة التوفيق، أن يصرّ الإنسان على معصية ربه عز وجل الذي أنعم عليه بنعم لا تُعد ولا تُحصى، فلا يكتفي بالعصيان، بل يجاهر به ويدعو إليه، حتى آخر لحظة في حياته! وذلك رغم ما حوله من العِبَر والدلائل، وكأنما لم يسمع قول الله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[٢]. ولكن، ما أكثر العِبَر وما أقلّ الاعتبار! وصدق الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[٣]. قال البغوي رحمه الله: "معناه: أن العمى الضار هو عمى القلب، فأما عمى البصر فليس بضار في أمر الدين"[٤]. وهؤلاء الذين

---

(١) النحل: ٢٥.

(٢) الحشر: ٢.

(٣) الحج: ٤٦.

(٤) تفسير البغوي (٥/ ٣٩١).

يصرّون على الباطل ويجاهرون به ويضلّون غيرهم، توعّدهم الله بقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾(٥).

أسأل الله تعالى أن يسدد أعمالنا وأقوالنا ويردنا إليه رداً جميلاً.

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال ابن كثير رحمه الله: "قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنما قدّرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم؛ أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا"(٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ

---

(٥) النحل: ٢٥.

(٦) صحيح مسلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، حديث رقم: ٢٦٧٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[٧]. وهكذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ إنها كقوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾. وقال مجاهد رحمه الله: يحملون أثقالهم؛ ذنوبهم، وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً"[٨].

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: إن الشريعة الإسلامية منضبطة بأوامرٍ ونواهٍ واضحة المعالم في توحيد الله تعالى ابتداءً، ثم في جوانب الحياة كلها دقها وجلها، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[٩]. قال السعدي رحمه الله: "وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على

---

(٧) العنكبوت: ١٣.

(٨) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٥).

(٩) الحشر: ٧.

قوله"(١٠). وقال صلى الله عليه وسلم: "تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ"(١١). وصدق صلى الله عليه وسلم بقوله: "لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ"، وجاء في الحديث القدسي: "يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"(١٢).

ثانياً: يجب على المسلم الحذر من التساهل في الالتزام بما أمر الله تعالى واجتناب ما نهى عنه، فاليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب بلا عمل. ومن التوفيق أن يُفكر الإنسان مراراً قبل الإقدام على أي عمل حتى يتأكد من خلوه من أي محظور شرعي؛ لئلا يقع تحت طائلة عقاب الله تعالى بمخالفته أوامره، والأدهى من ذلك إذا تأسى بهذا المحظور الأخرون، فتصبح الطامة أعظم وأكبر، ويصبح عَدّاد السيئات جارياً حتى يوم القيامة، قال الله العظيم: ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

---

(١٠) تفسير السعدي (ص: ٨٥١).

(١١) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، باب: الترهيب من ترك السنة وارتكاب البدع والأهواء، (١/١٣٢).

(١٢) صحيح مسلم، باب: تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٧٧.

عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[١٣]. قال المراغي رحمه الله: "إن الدعاة إلى الضّلال عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب إضلالهم من أضلوا، من غير أن ينقص أوزار أولئك ولا يرفع عنهم منها شيئاً، وهذا عدل من الله ورحمة منه بعباده"[١٤]. نسأل الله السلامة والعافية.

ثالثاً: من أعظم الخطر هذه الأيام انتشار أئمة الضلال ودعاة الغواية عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وهؤلاء يزينون الباطل بأعمالهم وأقوالهم وينجذب إليهم مع الأسف بعض الشباب والناشئة ذكوراً وإناثاً ممن لا يميزون بين والخبيث والطيب، وبين الغث والسمين، قال المراغي رحمه الله: "فائدة قوله: ﴿**بِغَيۡرِ عِلۡمٍ**﴾ بيان أنهم يُضلون من لا يعلم أنهم ضلّال وأنهم على الباطل، وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدَهم لا يروج على ذي لب، وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء"[١٥]. وقد حذر القرآن الكريم من أئمة الضلال، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ**﴾[١٦]. قال ابن عاشور رحمه الله: "والأئمة: جمع إمام، وهو من

---

(١٣) العنكبوت: ١٣.

(١٤) تفسير المراغي (١٥/ ٢٤).

(١٥) تفسير المراغي (١٤/ ٧٠).

(١٦) القصص: ٤١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يُقتدى به في عمل من خير، أو شر. ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار: خلق نفوسهم منصرفة إلى الشر، ومعرضة عن الإصغاء للرشد، وكان وجودهم بين ناس ذلك شأنهم"(١٧). وقال المراغي رحمه الله أن أئمة الضلال: "دأبوا على إضلال سواهم وتحسين العصيان لهم، وبذا قد ارتكبوا جريمتين، فباءوا بجزاءين: جزاء الضلال وجزاء الإضلال"(١٨). والواجب على الجهات المعنية وكافة المؤسسات التربوية الرسمية وغير الرسمية والعلماء والدعاة من طلبة العلم والمصلحين الوقوف بحزم ضد أئمة الضلال وتبصير الناس بشرورهم ومخالفة ما يدعون إليه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: في مقابل تحذير القرآن الكريم من أئمة الضلال، بين فضل أئمة الهداية، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾(١٩). قال السعدي رحمه الله: "وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يُهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وقوله: ﴿**يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾،

(١٧) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٢٦).

(١٨) تفسير المراغي (٢٠/ ٦٢).

(١٩) الأنبياء: ٧٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله، ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ**﴾، يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات كلها، من حقوق الله، وحقوق العباد، ﴿**وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ**﴾، هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن من كملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيّعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه، ﴿**وَكَانُواْ لَنَا**﴾، أي: لا لغيرنا ﴿**عَٰبِدِينَ**﴾، أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله"[٢٠]. والواجب على الجهات المعنية وكافة المؤسسات التربوية الرسمية وغير الرسمية والعلماء والدعاة من طلبة العلم والمصلحين دعم أئمة الهداية بكل وسائل الدعم: مادياً، ومعنوياً، ليعُم الخير بنشر الأخلاق الإسلامية الفاضلة والقيم والمبادئ السامية بين الناس.

(٢٠) تفسير السعدي (ص: ٥٢٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خامساً: إن الانحراف عن منهج الله تعالى وصراطه المستقيم بارتكاب المعاصي والذنوب ضلال مبين وخطر عظيم، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا**﴾(٢١). قال محمد طنطاوي رحمه الله: "ومن يعص الله ورسوله في أمر من الأمور، فقد ضل عن الحق والصواب ضلالاً واضحاً بيناً"(٢٢). ومن أعظم المعاصي وأشدها خطراً في الدنيا والآخرة الشرك بالله تعالى، فالمعاصي دون الشرك بالله تعالى تهون لأن مشيئة الله تعالى بالمغفرة لها قائمة، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾(٢٣)، وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا**﴾(٢٤). وجاء في الحديث القدسي: "يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"(٢٥).

---

(٢١) الأحزاب: ٣٦.

(٢٢) التفسير الوسيط لطنطاوي (١١/ ٢١٣).

(٢٣) النساء: ٤٨.

(٢٤) النساء: ١١٦.

(٢٥) الألباني: صحيح الترغيب والترهيب، باب: الترغيب في الاستغفار، حديث رقم: ١٦١٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سادساً: تضمنت الآية موضوع المقال: ﴿**لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً**﴾، ولعل في كلمة ﴿**كَامِلَةً**﴾ شيء من التهديد. قال البغوي رحمه الله: "ليحملوا أوزارهم، ذنوب أنفسهم، كاملة، وإنما ذكر الكمال لأن البلايا التي تلحقهم في الدنيا وما يفعلون فيها من الحسنات لا تكفر عنهم شيئاً، يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، بغير حجة فيصدونهم عن الإيمان، ألا ساء ما يزرون، ما يحملون"(٢٦). وقال ابن عثيمين رحمه الله: "فهم يحملون أثقالهم كاملة، أما أثقال المدعوين فلا يحملونها كاملة، ولو حملوها كاملة ما بقي للمدعوين شيء، وذلك لأن الداعي لا يتحمل وزر المدعو كاملاً، ولو تحمله كاملاً ما بقي للمدعو شيء، ولكن الوزر على الداعي والمدعو، والعياذ بالله". وقال المراغي رحمه الله: "والمراد من قوله ﴿**كَامِلَةً**﴾ أنه لا ينقص منها شيء"(٢٧).

سابعاً: يعتقد بعض الناس أن المتقين وأهل الصلاح لا تقع منهم هفوات وأخطاء، وقد تجد من يلمزهم، أو يقلل من شأنهم عند تقصيرهم، ونقول: إن المتقين وأهل الصلاح بشر كغيرهم، ولكن سرعان ما يؤوبون إلى

---

(٢٦) تفسر البغوي (٥/ ١٥).

(٢٧) تفسير المراغي (١٤/ ٧٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رشدهم بالعودة إلى الله تعالى مستغفرين تائبين، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ**﴾(٢٨)، وقال سبحانه: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ**﴾(٢٩). وجميل قول ابن تيمية رحمه الله: "ليس من شرط المتّقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب؛ فإن هذا لو كان كذلك لم يكن في الأمة مُتّق بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين، ومن فعل ما يُكفّر سيئاته دخل في المتقين، كما قال تعالى: ﴿**إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا**﴾(٣٠).

ثامناً: لما كان الإنسان معرضاً للخطأ والتقصير بحكم ضعفه البشري وبسبب تربص الشيطان به، استناداً لقول الله عز وجل: ﴿**قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ**﴾(٣١). قال الطبري رحمه الله:

---

(٢٨) الأعراف: ٢٠١.

(٢٩) آل عمران: ١٣٥.

(٣٠) سورة النساء: ٣١. منهاج السنة، (٨٢/٧).

(٣١) الأعراف:١٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

"لأصدَّن بني آدم عن عبادتك وطاعتك، ولأغوينهم كما أغويتني، ولأضلنهم كما أضللتني"(٣٢)؛ فالواجب على المسلم مجاهدة نفسه في التصدي لعداوة الشيطان بعدم الاستجابة لما يدعوه إليه، وليكن شعاره عند وسوسته وإغرائه بالمعصية ابتداءً الاستعاذة منه، ثم قوله تعالى: ﴿**إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ**﴾(٣٣). وأيضاً قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام حين راودته امرأة العزيز: ﴿**قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾(٣٤).

تاسعاً: ما أكثر ما يتكرر وعيد الله تعالى في القرآن الكريم لعباده المنحرفين عن الصراط المستقيم، بسؤالهم يوم القيامة عما ارتكبوه من أوزار في الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ**﴾(٣٥)، وقوله سبحانه: ﴿**ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ**﴾(٣٦)، وقال عز وجل: ﴿**ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا**

---

(٣٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٣٤).

(٣٣) المائدة: ٢٨.

(٣٤) يوسف: ٢٣.

(٣٥) العنكبوت: ١٣.

(٣٦) الأنعام: ١٦٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٣٧]. وهذا وعيد عظيم وخطر جسيم لمن استمر في الغفلة والإعراض عن منهج الله تعالى، ولكن رحمة الله واسعة؛ فقد فتح باب التوبة على مصراعية لمن أرداد الرجوع إليه. قال ابن باز رحمه الله: " على الإنسان أن يبادر بالتوبة ولو في لحظة الموت؛ لأن باب التوبة مفتوح مهما كان ما دام عقله معه، وعليه أن يبادر بالتوبة والحذر من المعاصي". وقد أمر الله تعالى عباده بالتوبة النصوح فقال تعالى: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾**[٣٨]. والله جل جلاله يفرح بتوبة عبده، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا"[٣٩]. فعلى المسلم المسارعة إلى التوبة والتمسك بشرع الله القويم قبل فوات الأوان، فإن الفرصة مواتية وقد لا تعود، ولا ينفع الندم بعدها.

عاشراً: نختم المقال بفائدة مهمة حول ما قد يحدث من التباس، أو تشكيك عند بعض الناس بين الآية موضوع المقال، وبين قوله تعالى: **﴿وَلَا**

---

(٣٧) الزمر: ٧.

(٣٨) التحريم: ٨.

(٣٩) صحيح مسلم، باب: في الحض على التوبة والفرح بها، حديث رقم: ٢٦٧٥.

تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾(٤٠). قال الشنقيطي رحمه الله: "والجواب: أن هؤلاء الضالين ما حملوا إلا أوزار أنفسهم؛ لأنهم تحملوا وزر الضلال ووزر الإضلال، فمن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها؛ لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا؛ لأن تشريعه لها لغيره ذنب من ذنوبه فأخذ به"(٤١).

وقال الشعراوي رحمه الله: "وهذه من المسائل التي توقَّف عندها بعض المستشرقين، محاولين اتهام القرآن وأسلوبه بالتناقض، فيتساءل: كيف يناقض القرآن بعضه فيقول: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾(٤٢)، ونقول: إن لكل لكل وزر طريقاً وحساباً، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل به أحداً غيره، ولكن إن حاول إضلال غيره فهو يتحمل وزر هذا الإضلال"(٤٣).

---

(٤٠) فاطر: ١٨.

(٤١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص ١٨٦.

(٤٢) الأنعام: ١٦٤.

(٤٣) تفسير الشعراوي (٥/ ٢٨١٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١٠)

عطاء الدنيا للجميع، وعطاء الآخرة للمؤمنين

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عطاء الدنيا للجميع، وعطاء الآخرة للمؤمنين

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾(٤٤).

تمهيد:

إن الله تعالى أمر جميع الناس بعبادته، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٤٥). قال القرطبي رحمه الله: "أنه عام في جميع الناس، فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها، قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ أمر بالعبادة له؛ والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه"(٤٦). ومن غفَلَ عن تحقق العبودية لله تعالى لم يُحرم من عطاء النعم الربانية، وجاء القرآن الكريم مذكّرًا بأعظم النعم التي أنعم الله بها عليهم من الخلق والرزق، لينبه عقولهم إلى أنه المتفرّد بها دون غيره، فهو وحده المستحق للعبادة، كما في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم

(٤٤) الإسراء: ٢٠.

(٤٥) البقرة: ٢١.

(٤٦) تفسير القرطبي (١/ ٢٢٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾(٤٧). قال ابن كثير رحمه الله: "ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك فليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ**﴾، أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان"(٤٨). ومرجع هداية الناس لحكم الله تعالى وتدبيره في شؤون خلقه، فله الأمر من قبلُ ومن بعد، وصدق الله العظيم: ﴿**لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ**﴾(٤٩). قال ابن باز رحمه الله: "يعني هداية التوفيق، هداية قذف النور في القلب، هداية الرضا بالحق، هذه بيد الله لا يملكها أحد، أما هداية البلاغ والبيان فقد جعلها الله بيد الرسل، هو يهدي، والرسل يهدون بالبلاغ والبيان"(٥٠).

---

(٤٧) فاطر: ٣.

(٤٨) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٧٢).

(٤٩) البقرة: ٢٧٢.

(٥٠) الفرق بين هداية التوفيق وهداية البلاغ، موقع الإمام ابن باز رحمه الله.

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال البغوي رحمه الله: "﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: نمد كلاً الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة، {من عطاء ربك} أي: يرزقهما جميعاً ثم يختلف بهما الحال في المآل، {وما كان عطاء ربك} رزق ربك، {محظوراً} ممنوعًا عن عباده. فالمراد من العطاء؛ العطاء في الدنيا وإلا فلا حظ للكفار في الآخرة"(٥١).

وقال ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾؛ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾؛ أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعاً، أي: لا يمنعه أحد ولا يرده راد"(٥٢).

---

(٥١) تفسر البغوي (٥/ ٨٤).

(٥٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٥٨).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: تتجلى عظمة رحمة الله تعالى بعباده مؤمنهم وكافرهم في تسخير شتى النعم الظاهرة والباطنة لهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾(١). قال السعدي رحمه الله: "يمتن تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها؛ وعدم الغفلة عنها، فقال: ﴿**أَلَمْ تَرَوْاْ**﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ**﴾، من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد، ﴿**وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ من الحيوانات والأشجار والزروع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾(٢)، ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ**﴾ أي: عمّكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة التي نعلم بها؛ والتي تخفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم؛ بمحبة المنعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها

---

(١) لقمان: ٢٠.

(٢) البقرة: ٢٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على معصيته"[١]. وجميل قول ابن عاشور رحمه الله: "إن الله تعالى لم يترك خلقه من أثر رحمته حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه، فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة، وذلك مصداق قوله: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٢]. وقوله فيما رواه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم "إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"[٣]"[٤].

ثانياً: من أعظم النعم على العباد أن هداهم الله للإسلام، وأمرهم باتباع رسله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾[٥]. قال ابن كثر رحمه الله: "هذه أكبر نعم الله، عز وجل، على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه"[٦]. وقال ابن تيمية رحمه الله: "فمن أعظم نعم الله على عباده

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٤٩).

(٢) الأعراف: ١٥٦.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم: ٦٩٨٦، صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٧٥١.

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٦١).

(٥) المائدة: ٣.

(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأشرف منة عليهم: أن أرسل إليهم رسله؛ وأنزل عليهم كتبه؛ وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشر حالاً منها"(١).

ثالثاً: إن غاية وجود الإنسان في الدنيا واضحة لمن أنار الله بصيرته، وملخصها قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾(٢). قال ابن رجب رحمه الله: "وإنما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب لذلك، فالعبادة حق الله على عباده، ولا قدرة للعباد عليها بدون إعانة الله لهم"(٣). والعبودية إكرام وتشريف للناس ورفعة لهم؛ قال ابن تيمية رحمه الله: "فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق، بل من أضلهم"(٤). وتحقيق العبودية واكتساب منافعها في الدنيا والآخرة مرتبط ارتباطاً وثيقاً باتباع منهج

(١) الفتاوى، (١٩/ ١٠٠).

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٦٩).

(٤) العبودية، ص ٧٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الله تعالى ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾[١]. قال ابن باز رحمه الله: "إن من اتبع الهدى، واستقام على الحق الذي بعث الله به نبيه محمد عليه الصلاة والسلام فإنه لا يضل في الدنيا، بل يكون مهتديًا مستقيمًا، ولا يشقى في الآخرة، بل له الجنة والكرامة".

رابعاً: يظن بعض الناس، بسبب قلة العلم وضعف التصور لحقيقة الدين وأحكامه، أن الكافر يعيش في سعادة مطلقة ويتمتع بجميع متع الدنيا، وهذا ظن خاطئ وبعيد عن عدل الله تعالى، وصدق الله العظيم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾[٢]. قال البغوي رحمه الله: "ليس لهم هِمّة إلا بطونهم وفروجهم، وهم لاهون ساهون عما في غدٍ، قيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾"[٣]. وقال محمد رشيد رضا رحمه الله: "ولكن تمتيع الكافر محدود بهذا العمر القصير، ومصيره في الآخرة إلى شر مصير، وذلك جواب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ

(١) طه: ١٢٣.

(٢) محمد: ١٢.

(٣) تفسير البغوي (٧/ ٢٨١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾(١)، أي: وأرزق من كفر أيضاً فأمتعه بهذا الرزق قليلاً، وهو مدة وجوده في الدنيا ثم أسوقه إلى عذاب النار سوقاً اضطرارياً لا يقصده هو ولا يعلم أن كفره ينتهي به إليه"(٢). وعموماً السعادة الحقيقية لا تقاس بمتاع الدنيا الزائل، بل بما أعده الله لعباده المؤمنين من نعيم دائم في الآخرة.

خامساً: حذر القرآن الكريم من الإعجاب بأهل الكفر والفسق والضلال، وما مدهم به الأموال والأولاد وما ظهر عليهم من النعم؛ وفي ظنهم أنها من إكرام الله لهم، ﴿**أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ**﴾(٣)، فجاء التحذير من الله تعالى بعدم الإعجاب بهم، قال تعالى: ﴿**فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ**﴾(٤). قال البغوي رحمه الله: "لا تستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد لأن العبد إذا كان من الله في استدراج كثر الله ماله وولده،

---

(١) البقرة: ١٢٦.

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٨٢).

(٣) المؤمنون: ٥٥-٥٦.

(٤) التوبة: ٥٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فإن قيل: أي تعذيب في المال والولد وهم يتنعمون بها في الحياة الدنيا؟ وقيل: يعذبهم بالتعب في جمعه، والوجل في حفظه، والكره في إنفاقه، والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده، ثم يَقْدُم على ملك لا يعذره"(١).

سادساً: إن الله تعالى جعل أعمال البشر قائمة على سنن كونية واجتماعية، فمن عَرَفها وعمل بها نال جزاء عمله، ومن أتقنها وألمّ بها، نال ثمارها، بغض النظر عن دينه ومذهبه. قال محمد رشيد رضا رحمه الله: "إن عطاءه واسع مبذول لكل أحد، ليس فيه حظر من الله تعالى، فللمشمر تشميره، وعلى المقصر تقصيره"(٢). والناس يتفاوتون في ذلك بحسب علمهم وهمتهم وغاياتهم التي يسعون إليها. وقد نبه ابن كثير رحمه الله تعالى على أهمية علو الهمة في السعي، فقال: "فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة"(٣). ولذلك ينبغي على المؤمن أن يحقق التوازن بين السعي في الدنيا

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٥٩).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٢١٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والسعي للآخرة، بحيث لا يطغى جانب على آخر، مسترشدًا بقول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾(١).

سابعاً: فائدة لغوية: قد يسأل سائل عن الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾(٢)، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾(٣) ؛ "محظوراً" مأخوذ من: "حظر"؛ وهو يدل على المنع والحجر، ويقال: "الحظر: الحجر، وهو خلاف الإباحة، والمحظور: المحرم، حظر الشيء يحظره حظراً وحظاراً وحظر عليه: منعه(٤). وقال ابن كثير رحمه الله: ﴿مَحۡظُورًا﴾، أي: "ممنوعاً، أي: لا يمنعه أحد ولا يرده راد"(٥). أما "محذورًا" فهي مأخوذة من: (حذر)؛ الذي يدل على التحرز والتيقظ، ويقال: "رجل حذر متيقظ شديد الحذر والفزع، وحاذر: متأهب معد كأنه

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) الإسراء: ٢٠.

(٣) الإسراء: ٥٧.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، (٤/ ٢٠٢).

(٥) تفسير ابن كثير (٥/ ٥٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يحذر أن يفاجأ"(١). وقال القرطبي رحمه الله: ﴿**مَحْذُورًا**﴾، "أي: مخوفًا لا أمان لأحد منه، فينبغي أن يحذر منه ويخاف"(٢). وعلى هذا، فإن "محظورًا" تعني الممنوع الذي لا يمكن لأحد حجبه، بينما "محذورًا" تعني المخوف الذي ينبغي الحذر منه.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، (٤/ ١٧٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٨٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١١)

سنّة اللّه في إحقاق الحق وإزهاق الباطل

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سنّة الله في إحقاق الحق وإزهاق الباطل

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[١].

تمهيد:

من كمال الشريعة الإسلامية وجمالها أنها جاءت بالحق في شتى مجالات الحياة، والدعوة إليه، والمحافظة عليه، لأن مصدرها هو الله الحق جل جلاله؛ قال السعدي رحمه الله: "قوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[٢]"[٣].

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الطبري رحمه الله: "﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ أي: أن الحق قد جاء، وهو كل ما كان لله فيه رضا وطاعة، وأن الباطل قد زهق:

---

(١) الإسراء: ٨٠.

(٢) الحج: ٦٢. أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته، ص ٩٤١.

(٣) تفسير السعدي (ص: ٩٤٩)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يقول: وذهب كل ما كان لا رضا لله فيه، ولا طاعة مما هو له معصية وللشيطان طاعة، وذلك أن الحق هو كل ما خالف طاعة إبليس، وأن الباطل: هو كل ما وافق طاعته، ولم يخصص الله عز ذكره بالخبر عن بعض طاعاته، ولا ذهاب بعض معاصيه، بل عم الخبر عن مجيء جميع الحق، وذهاب جميع الباطل، وأما قوله عز وجل: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ زهق الباطل، يزهق زهوقاً، وأزهقه الله: أي أذهبه"[٤].

وقال الشوكاني رحمه الله: "﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ المراد بالحق الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: الجهاد، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك، وعلى ما هو حق كائناً ما كان، والمراد بالباطل الشرك، وقيل: الشيطان، ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل، ومعنى زهق: بطل واضمحل، ومنه زهوق النفس، وهو بطلانها ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، أي: إن هذا شأنه؛ فهو يبطل ولا يثبت، والحق ثابت دائماً"[٥].

---

(٤) تفسير الطبري (١٧/ ٥٣٨).

(٥) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٠٠).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: الحق اسم من أسماء الله الحسنى، ورد في القرآن الكريم في عشر آيات، **(الأنعام: ٦٢، يونس: ٣٠، يونس: ٣٢، الكهف: ٤٤، طه: ١١٤، الحج: ٦، الحج: ٦٢، المؤمنون: ١١٦، النور: ٦٢، لقمان: ٣٠)**، "ومعنى اسم الله الحق؛ هو المتصف بالوجود الدائم والحياة القيومية والبقاء، فلا يلحقه زوال، أو فناء، وكل أوصاف الحق كاملة للكمال والجمال، والعظمة والجلال"(٦). قال ابن القيم رحمه الله: "فكما أن ذاته الحق فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق"(٧). ومعنى الحق كما أورده العَيْني رحمه الله: "الحق ما لا يسع إنكاره ويلزم إثباته والاعتراف به، ووجود الباري أولى ما يجب الاعتراف به ولا يسع جحوده"(٨).

(٦) بالي، معنى اسم الله الحق، موقع الألوكة.

(٧) بدائع الفوائد، ج٤، ص ١٥٩٥.

(٨) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، بيان معاني أسماء الذات (١/ ٢١١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثانياً: إن الغاية التي خُلق الإنسان من أجلها؛ توحيد الله تعالى، والالتزام بشرعه أمراً ونهياً. قال البغوي رحمه الله في معرض تفسير الآية موضوع المقال: "الحق: عبادة الله، والباطل: عبادة الأصنام"(٩). ولا شك أن عبادة الله تعالى هي الحق الأعظم لله تعالى على عباده، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾(١٠). وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه حق الله على العباد: "أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا"(١١). فالواجب العناية التامة بتوحيد الله تعالى، وبذل كل الوسائل المشروعة للمحافظة عليه، فلا قيمة للدنيا وللبشرية بلا توحيد، فهو نورها، وأمانها وضمانها، ومصدر قوتها، ومن عاش بلا توحيد خالص عاش في مهب الريح، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾(١٢).

---

(٩) تفسر البغوي (٥/ ١٢٢).

(١٠) الذاريات: ٥٦.

(١١) صحيح البخاري، باب: ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم: ٦٩٣٨.

(١٢) الحج: ٣١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثالثاً: من أعظم ما يتميز به الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم "قرآناً وسنة" أنه محفوظ بحفظ الله تعالى من وقت نزوله حتى يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**﴾(١٣). قال القرطبي رحمه الله: "فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً"(١٤). وقال الشنقيطي رحمه الله: "بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّه هو الذي نزل القرآن العظيم، وأنه حافظ له من أن يزاد فيه أو ينقص، أو يتغير منه شيء، أو يبدل، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿**لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾(١٥)"(١٦).

رابعاً: يجب على المسلم أن تكون الآية موضوع المقال شعاراً له في حياته، فالحق أبلج والباطل لجلج، فإذا شَعر المسلم في يوم من الأيام أن له حق ثابت قد اعْتِدي عليه وسُلِب منه، فلا ييأس ولا يظن بالله إلاّ خيراً، وأن هذا ابتلاء وقع عليه، فليتحلى بالصبر، ويتجمل باليقين بأن الله تعالى

---

(١٣) الحجر: ٩.

(١٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٥).

(١٥) فصلت: ٤٢.

(١٦) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٢٥٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سيعيده إليه مهما طال الزمن، ولن يطول كثيراً بعون الله ورحمته، قال تعالى: ﴿**بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ**﴾(١٧). وجميل قول ابن عثيمين رحمه الله: "يجب على المرء إذا اشتدت به الأمور أن يرجع إلى الله عز وجل"(١٨). ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، قال ابن عاشور رحمه الله: "ولما كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم هي لإقامة الحق وإبطال الباطل كان الوعد بظهور الحق وعداً بظهور أمر الرسول وفوزه على أعدائه، واستحفظه الله هذه الكلمة الجليلة إلى أن ألقاها يوم فتح مكة على مسامع من كانوا أعداءه"(١٩)؛ وهي قوله تعالى: ﴿**وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا**﴾(٢٠).

خامساً: تميزت الشريعة الإسلامية بإعلاء قيمة الحق، وما يلحقه من نشر السلام، والمحبة، والعدل بين الناس ونبذ الظلم، ونصرة المظلوم، والشواهد المؤكدة على ذلك أكثر من أن تحصى، وكلما التزم المجتمع المسلم

---

(١٧) الأنبياء:١٨.

(١٨) تفسير الفاتحة والبقرة، (٣/ ٢٣١).

(١٩) التحرير والتنوير (١٥/ ١٨٧).

(٢٠) الإسراء: ٨١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بالقرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وتمسك بالقيم والمبادئ الرفيعة والأخلاق السامية التي يحتويانها، كان أكثر أمنًا واستقرارًا، وأبعد عن الظلم والطغيان والفساد[١].

سادساً: الصراع بين الحق والباطل قديماً، ويظهر بين فترة وأخرى، ولكن الحق هو الغالب، قال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾[٢]. قال الشوكاني رحمه الله: "إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإن الله تعالى سيمحقه ويبطله، ويجعل العاقبة للحق وأهله"[٣]. ومن ومن أهم الأسباب بعد عون الله تعالى وتوفيقه لانتصار الحق على الباطل التدافع بينهما، قال تعالى: ﴿**وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ**﴾[٤]. قال محمد رشيد رضا رحمه الله: "أي: لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهل

(١) انظر: مقال للكاتب بعنوان: غرس المبادئ والقيم والأخلاق الإسلامية، موقع الألوكة.

(٢) البقرة: ٧١.

(٣) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٩١).

(٤) البقرة: ٢٥١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين، فأهل الحق حرب لأهل الباطل في كل زمان، والله ناصرهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض"[١].

سابعاً: الشيطان لعنه الله تعالى في محكم التنزيل؛ ﴿**شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ**﴾[٢]؛ عرف أن وعد الله تعالى حق؛ ﴿**وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ**﴾[٣]، وجاء التحذير من عداوته: ﴿**إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾[٤]. ومن أولى مهام الشيطان استخدام كل الوسائل الممكنة لصد الناس عن الحق وإخراجهم من الهدى إلى الضلال، وعلى المسلم أن يدرك عدوه الحقيقي، ويتبصر بخبث أساليبه،

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٣٨٩).

(٢) النساء: ١٧-١٨.

(٣) إبراهيم: ٢٢.

(٤) فاطر: ٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويكثر من الاستعاذة بالله منه، حتى لا يقع في حبائله التي تصده عن الحق الذي أنزله الله تعالى، فبذلك يظلم نفسه، ويظلم الآخرين، وينشر الفساد في الأرض، والله لا يحب المفسدين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١٢)

اختلاف الطبائع ومسؤولية العمل

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

شبكة الألوكة
www.alukah.net

اختلاف الطبائع ومسؤولية العمل

﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾[١].

تمهيد:

من أعظم دلالات وحدانية الله تعالى وقدرته؛ خَلْقُ الإنسان، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[٢]. قال الطبري رحمه الله: "وفي أنفسكم أيها الناس آيات وعِبر تدلُّكم على وحدانية صانعكم، وأنه لا إله لكم سواه، إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾"[٣]. ومن كمال تكريمه أنه هيأ له المنهج المتكامل الذي يرسم له خارطة الطريق بكل تفاصيلها، فمن اتبعها لا يضل ولا يشقى، وزوده بالإمكانات والقدرات والإرادات الفطرية التي تجعله يؤدي رسالته التي خلقها الله عز وجل من أجلها على أكمل وجه، فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها، قال تعالي: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ

(١) الإسراء: ٨٤.

(٢) الذاريات: ٢١.

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٢٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[٤]. قال البغوي رحمه الله: "قوله عز وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: الحجج البينة التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فمن عَرَفها وآمن بها فلنفسه عمل، ونَفْعه له، ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: من عمي عنها، فلم يعرفها، ولم يصدقها فعليها، أي: فبنفسه ضر، ووبال العمى عليه"[٥].

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الشوكاني رحمه الله: "المعنى: أن كلّ إنسانٍ يعمل على ما يشاكل أخلاقه التي ألفها، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن؛ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق، فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يُعْرِض عند النعمة، ولا ييأس عند المِحْنة، وبين الكافر الذي شأنه البطر للنعم، والقنوط عند النقم"[٦].

---

(٤) الأنعام: ١٠٤.

(٥) تفسير البغوي (٣/ ١٧٤).

(٦) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٠١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال القاسمي رحمه الله: "﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾؛ أي: على مذهبه وطريقته وخليقته وملكته الغالبة عليه، الحاصلة له من استعداد حقيقته، التي تُشاكل حاله في الهدى والضلالة، ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾؛ أي: أسد مذهباً وطريقة، من العاملين: عامل الخير بمقتضى سجية القلب الفاضلة، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس، فيجازيهما بحسب أعمالهما"(٧).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: توجد علاقة وثيقة وارتباط عميق بين ما تربى عليه الإنسان، وبين نتائج سلوكياته وتصرفاته، فكلما كانت التربية مستقاة من معين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وعلى قدر من العناية والاهتمام بغرس القيم والمبادئ الفاضلة والأخلاق السامية كلما كانت السلوكيات والتصرفات الظاهرة والباطنة على قدر كبير من الانضباط، وفعل الخير، والعطاء، والمحبة،

(٧) تفسير القاسمي (٦/ ٥٠٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والتسامح، والرقي الأخلاقي، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾(٨).

ثانياً: قال صلى الله عليه وسلم: "كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"(٩). وعن معنى الحديث؛ قال ابن حجر رحمه الله: "إن ظاهر الحديث أن المعرفة حاصلة بأصل الفطرة، وأن الخروج عن ذلك يطرأ على الشخص لقوله عليه الصلاة والسلام: فأبواه يهودانه وينصرانه"(١٠). وقال ابن رجب رحمه الله: "الإنسان يولد مفطورًا على قبول الحق، فإن هداه الله سبَّب له من يعلمه الهدى، فصار مهتديًا بالفعل بعد أن كان مهتديًا بالقوَّة، وإن خذله الله، قيَّض له من يعلمه ما يُغير فطرته"(١١).

ثالثاً: يجب على الوالدين العناية التامة بتربية أولادهما؛ تربية شاملة شعارها: الوسطية، والاعتدال، في جميع مجالاتها: العقدية، والخُلقية،

---

(٨) الأعراف: ٥٨.

(٩) صحيح البخاري، باب: ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم: ١٣٨٥، صحيح مسلم، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث رقم: ٢٦٥٨.

(١٠) فتح البارئ، باب: ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تعالى، (١٣/ ٣٤٨).

(١١) جامع العلوم والحكم، الحديث الرابع والعشرون، (٢/ ٣٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والسُّلوكية، والثقافية، والاجتماعية، فكل راع مسؤول عن رعيته؛ كما وجه بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم: "كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ"(١٢). وإن إهمال تربية الأولاد والعناية بهم من أعظم الإثم، قال صلى الله عليه وسلم: "كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ"(١٣). قال ابن باز رحمه الله: "يعني: كافيه في الإثم أن يُضيع مَن تحت يده من أزواجٍ، وأولادٍ، وخدمٍ أرقاء، يعني: أنه يحصل له إثم عظيم بذلك"(١٤).

رابعاً: ترتبط شاكلة الإنسان؛ بإرادته، وعلى قدر سلامة الإرادة وقوتها تصدر منه "سلوكياته وتصرفاته"، فالله تعالى أوجد في الإنسان إرادة الاختيار للخير وإرادة الاختيار للشر، فالقرار في التوجه لأحدهما نابع من بإرادته، قال تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ**﴾(١٥). قال البغوي رحمه الله: "طريق الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلالة، كقوله: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا**

---

(١٢) صحيح البخاري، باب: المرأة راعية في بيت زوجها، حديث رقم: ٤٩٠٤، صحيح مسلم، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، حديث رقم: ١٨٢٩.

(١٣) أبو داود، باب: في صلة الرحم، حديث رقم: ١٦٩٢.

(١٤) للتوسع حول ذلك؛ انظر كتابي: الذرية في القرآن الكريم ومضامينها التربوية، موقع الألوكة.

(١٥) البلد: ١٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١٦]"[١٧]. وقال تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا**﴾[١٨]. قال الطبري رحمه الله: "بين لها ما ينبغي لها أن تأتي، أو تذر من خير، أو شرّ، أو طاعة، أو معصية"[١٩]. ويؤكد ابن القيم رحمه الله بقوله: "فهو "الإنسان" يعمل على شاكلة إرادته، وما هو الأليق به، والأنسب لها، فكل امرئ يهفو إلى ما يحبه، وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه"[٢٠]. ولذلك كلما كانت الإرادة صادرة ومستمدة من أساس سليم في الحرص على تقوى الله تعالى وعبادته في الظاهر والباطن كانت على قدر كبير من الميول والاستعدادات للسلوكيات والتصرفات الإيجابية.

خامساً: يُلمح من الآية موضوع المقال أن فيها شيء من التهديد والوعيد لمن يخالف منهج الله تعالى ويتبع إراداته الخبيثة في حب الشر وإيذاء الآخرين، وقد نوه ابن كثير رحمه الله أن الآية فيها: "تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا**

---

(١٦) الإنسان: ٣.

(١٧) تفسير البغوي (٨/ ٢٩٢).

(١٨) الشمس: ٨.

(١٩) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٥٤).

(٢٠) مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، منزلة الإرادة، (٢/ ٣٥١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عَٰمِلُونَ﴾[٢١]. ولهذا قال: ﴿**قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا**﴾ أي: منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفى عليه خافية"[٢٢]. ويظهر أن التهديد في الآية الكريمة عام يشمل كل من خالف منهج الله تعالى سواء كان من المشركين، أو من عصاة المسلمين، وقد يتفق ذلك مع القاعدة الشرعية المشتهرة: **(الجزاء من جنس العمل)**.

سادساً: مطلع الآية: ﴿**قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ**﴾، المتأمل لها يلحظ أن فيها حث على العمل؛ والإسلام يُعلي شأنه ويقدسه، ومثالها؛ قوله تعالى: ﴿**وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ**﴾[٢٣]. والله سبحانه وحده أعلم بمن هو أهدى سبيلاً؛ أي: من كان عمله خالصاً له وحده وموافقاً لشرعه، أو بخلاف ذلك، والناس بين مقلٍ ومستكثرٍ، ومتفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في أداء العمل بحكم سنة الاختلاف بينهم، والمقررة في قوله تعالى: ﴿**وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ**﴾[٢٤]. وجميل قول

---

(٢١) هود: ١٢١.

(٢٢) تفسير ابن كثير (٥/ ١٠٤).

(٢٣) التوبة: ٥.

(٢٤) هود: ١١٨.

الشعراوي رحمه الله: "أن كل إنسان يعمل على طريقته، وعلى طبيعته، وعلى مقدار ما تكونت به من خلايا الإيمان، أو من خلايا إيمان اختلطت بخلايا عصيان، أو بما عنده من خلايا كفر، فالناس مختلفون، وليسوا على طبع واحد"(٢٥).

سابعاً: الكمال في البشر عزيز، وقد يحدث بحكم ضعف الطبيعة البشرية وغفلتها، وهو الغالب شيء من الخلل والتقصير من جهة، والوقوع في المعاصي والذنوب من جهة أخرى، فكل ابن آدم خطاء؛ كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"(٢٦). وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله تعالى: يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ"(٢٧). فطالما التقصير والخطأ لا يسلم منه أحد إلا من عصمه الله تعالى، فالواجب إدمان التوبة والاستغفار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ**

(٢٥) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٧١٦).

(٢٦) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم: ٣١٣٩.

(٢٧) صحيح مسلم، باب: تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٧٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[٢٨]. ونبينا المعصوم صلى الله عليه وسلم يعلي شأن الاستغفار؛ قال: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ"[٢٩].

ثامناً: إن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، فمن سلك طريق الهداية، أو سلك طريق الغواية؛ فالله تعالى أعلم به ولا يخفى عليه شيء من أمره البتة، قال تعالى: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾**[٣٠]، وقال تعالى: **﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾**[٣١]. ومن أسماء الله الحسنى المحيط؛ أي: محيط بكل شيء، قال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾**[٣٢]. قال الطبري رحمه الله: "ولم يزل الله محصيًا لكل ما هو فاعله عباده من خير وشر، عالماً بذلك، لا يخفى عليه شيء منه، ولا يعزب عنه

---

(٢٨) التحريم: ٨.

(٢٩) صحيح مسلم، باب: الاستغفار والتوبة، حديث رقم: ٢٧٠٥.

(٣٠) آل عمران: ٥.

(٣١) طه: ٧.

(٣٢) النساء:١٢٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منه مثقال ذرة"[٣٣]. ومن أسمائه سبحانه العليم؛ أي: العليم بكل شيء، قال تعالى: ﴿**وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى**﴾[٣٤]. قال السعدي رحمه الله: "أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها، وجليلها، خفيها، وظاهرها، فسواء جهرت بقولك، أو أسررته، فالكل سواء"[٣٥]. ولما كان العلم والإحاطة لله تعالى شاملين لكل شيء فحري بالعبد المؤمن أن يراقب الله تعالى في عمله كله؛ دقه وجله، ظاهره وباطنه، فيجعل الله تعالى دائماً أمامه ممتثلاً أوامره، ومجتنباً نواهيه، وإن صدر منه ما يخالف ذلك بادر بالندم، والتوبة، والاستغفار؛ فالله غفور رحيم.

تاسعاً: من كمال الشريعة وجمالها أنها بينت ما يُعين العبد على تزكية نفسه وتهذيبها لتكون دائماً في رعاية الله وحفظه، ولا يتأتى ذلك إلاّ بطاعة الله تعالى واجتناب معاصيه، قال تعالى: ﴿**وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا، فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا، قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا، وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾[٣٦]. قال

---

(٣٣) تفسير الطبري (٩/ ٢٥٢).

(٣٤) طه:٧.

(٣٥) تفسير السعدي (ص: ٥٠٢).

(٣٦) الشمس: ٧-١٠.

ابن كثير رحمه الله: "﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، أي: بطاعة الله وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: دسسها، أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل"[٣٧].

عاشراً: يغلب على الطبيعة البشرية الميل إلى من يُشاكلها بحكم الهوى والشهوات والعادات والتقاليد والأعراف السائدة، أو الاتجاه السائد في البيئة المحيطة. قال المراغي رحمه الله: "من شأن الأفراد والجماعات أن يميل كل منهم إلى من كان على شاكلته ويتولاه بالتعاون والتناصر فيما هم فيه مشتركون ويناوئون من يخالفهم في ذلك"[٣٨]. وهنا وقفة تربوية مهمة، أن الإنسان الموفق بتوفيق الله تعالى لا يتجه في أي وجهة، أو يسير مع من هب ودب؛ حتى يعرف حقيقته ويسبر مآله من خير وشر؛ لأن مسايرة الناس في توجهاتهم والتعلق بالعادات والتقاليد والأعراف قد يحصل من جرائها أخطاء شرعية لا تحمد عقباها، ويكون الإنسان بسببها تحت دائرة عقاب الله

(٣٧) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٠٠).

(٣٨) تفسير المراغي (٨/ ٣١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تعالى، وهذا الميل غير الواعي تجاه توجهات الناس والتعلق بالعادات والتقاليد ممقوت شرعاً وعقلاً، وهو من إفرازات الجاهلية؛ حين قال أحدهم:

وما أنا إلّا من غزيّة إن غَوَت ... غويتُ وإن ترشُد غزيّةُ أرشُدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١٣)

الجزاء من جنس العمل وعدل اللّه المطلق

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الجزاء من جنس العمل وعدل الله المطلق

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٣٩).

تمهيد:

الإنسان عندما يوفقه الله تعالى للهداية ولزوم صراطه المستقيم متبعاً أوامره ومجتنباً نواهيه يعيش في سعادة وراحة بال، ومن لم يوفق لذلك عاش في تعاسة وسوء حال، قال تعالى: **﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾**(٤٠). قال ابن كثير رحمه الله: "هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من ذكر أو أنثى، من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت"(٤١).

---

(٣٩) الحج: ١٠.

(٤٠) النحل: ٩٧.

(٤١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٦).

ولذلك يجب على الإنسان المسلم لزوم طاعة الله تعالى ويجتهد في ذلك وسع طاقته، فالدنيا فرصة ثمينة ومواتية للإنسان ليتزود من الطاعات ابتغاء ما عند الله تعالى من الخير والجزاء العظيم. وجميل قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ارتحلت الدُّنيا مدبرةً، وارتحلت الآخرة مقبلةً، ولكلِّ واحدةٍ منهما بَنُونَ، فكونوا من أبناءِ الآخرةِ، ولا تكونوا من أبناءِ الدنيا؛ فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عملٌ"(٤٢).

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الطبري رحمه الله: "وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: ويقال له إذا أذيق عذاب النار يوم القيامة: هذا العذاب الذي نذيقكه اليوم بما قدمت يداك في الدنيا من الذنوب والآثام، واكتسبته فيها من الإجرام، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ يقول: وفعلنا ذلك لأن الله ليس بظلام للعبيد، فيعاقب بعض عبيده على جُرْم، وهو يغفر مثله من آخر غيره، أو يحمل ذنب مذنب على غير مذنب، فيعاقبه به ويعفو عن صاحب

(٤٢) صحيح البخاري، باب: في الأمل وطوله، حديث رقم: ٢٣٥٨.

الذنب، ولكنه لا يعاقب أحداً إلا على جرمه، ولا يعذب أحداً على ذنب يغفر مثله لآخر إلا بسبب استحق به منه مغفرته"(١).

وقال المراغي رحمه الله: "أي: ويقال له حينئذ: إن هذه النار التي تصطلي بلهبها اليوم جزاء ما اجترحت يداك في الدنيا من الآثام، واكتسبته من الذنوب والمعاصي، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: وقد فعلنا ذلك، لأن الله لا يظلم عباده، فيعاقب بعض عبيده على جرم، ويعفو عن مثله عن آخر غيره، وقصارى ذلك إنهم استحقوا هذا العذاب لما اجترحوه من الآثام والذنوب، والله لا يظلم أحداً بغير جرم قد فعله، ومآل ذلك توبيخهم وتبكيتهم بأنهم هم سبب هذا العذاب"(٢).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: هناك آيتان متشابهتان مع الآية موضوع المقال، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾(٣)، وقوله سبحانه:

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٥٧٤).
(٢) تفسير المراغي (١٧/ ٩٢).
(٣) آل عمران: ١٨٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سبحانه: ﴿**ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[١]؛ وجاءت في سياقات مختلفة، وبأساليب متباينة، ولكن جميعها تتحدث عن عدل الله تعالى، ونفي الظلم عنه سبحانه، ومحاسبة الإنسان على أفعاله.

ثانياً: تعددت الآيات التي تتضمن أن العمل الذي يقدمه الإنسان سواء كان خيراً، أو شراً هو الذي أقدم عليه بنفسه وبمحض إرادته، ومنها قوله تعالى: ﴿**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ**﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**﴾[٣]. قال السعدي رحمه الله: "فمن شاء منكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدنيه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر عما خلق له وعما يحبه الله ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم"[٤].

---

(١) الأنفال: ٥١.

(٢) الإنفطار: ٥.

(٣) المدثر: ٣٧.

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٩٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثالثاً: الإنسان أمام طريقين لا ثالث لهما، قال تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ**﴾(١). قال ابن باز رحمه الله: "الطريقان، المقصود الطريقان: طريق الخير، وطريق الشر، هذا هو المراد بالنجدين الطريقين؛ لأن الله جل وعلا بيّن لعباده الطريقين؛ طريق الشر يعني: الشرك والمعاصي ونهاهم عن ذلك، وبين لهم طريق الخير، التوحيد والطاعات ودعاهم إليه على أيدي الرسل وفي الكتب المنزلة من التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وغيرها".

رابعاً: "فائدة لغوية مهمة" جاء في التعبير القرآني في آيات كثيرة، منها: الآية موضوع المقال: ﴿**ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ**﴾، وقوله سبحانه: ﴿**ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ**﴾؛ وقد يسأل سائل: لماذا خُصت اليد في التعبير القرآني دون غيرها في تقديم الأعمال، مع العلم أن ليس كل الأعمال التي يقدمها الإنسان هي من فعل يده، بل أن هناك جوارح أخرى تؤدي أعمالاً قد تكون في مجال الخير أو مجال الشر؟ وإليكم التوضيح: قال الزجاج رحمه الله: "يقال لكل ما عمله عامل كسَبَتْ يَدَاك، لأن اليَدَيْن الأصلُ في التصرف فجعلتا مثلًا لجميع مَا عُمِلَ بغيرِهِمَا"(٢). وجاء في توضيح أشمل

---

(١) البلد: ١٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، (٢/ ٣٢٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للشنقيطي رحمه الله إذ قال: "أنه أسند كل ما قدم إلى يديه في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، وكفره الذي هو أعظم ذنوبه ليس من فعل اليد، وإنما هو من فعل القلب واللسان، وإن كان بعض أنواع البطش باليد، يدل على الكفر، فهو في اللسان والقلب أظهر منه في اليد، وزناه لم يفعله بيده، بل بفرجه، ونحو ذلك من المعاصي التي تزاول بغير اليد، والجواب عن هذا ظاهر، وهو أن من أساليب اللغة العربية، التي نزل بها القرآن إسناد جميع الأعمال إلى اليد، نظرًا إلى أنها الجارحة التي يزاول بها أكثر الأعمال، فغلبت على غيرها، ولا إشكال في ذلك"(١).

خامساً: الآية موضوع المقال تتضمن أسلوب: "التوبيخ والتقريع"، وهو من الأساليب التربوية التي تُهذب النفس الإنسانية وتُصلحها، وهذا الأسلوب جاء مبثوثاً في كثير من آيات القرآن الكريمة، وله أساليب لغوية متنوعة للوصول إلى تحقيق الأثر المناسب، ومن ذلك؛ الاستفهام، كقول الله تعالى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾(٢)، والنداء كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٢٨٣).

(٢) الصافات: ١٢٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾(١)، والتكرار لتأكيد المعنى، وزيادة الأثر النفسي، كقوله تعالى: ﴿**فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ، ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ**﴾(٢)، وقوله سبحانه: ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾(٣)، والسخرية، كقوله سبحانه: ﴿**ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ**﴾(٤)، العاقبة الوخيمة، كقوله عز وجل: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ**﴾(٥)، أسلوب التحقير والتقليل، كقوله تعالى: ﴿**قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا**﴾(٦)، وغير ذلك.

سادساً: يُعدّ التوبيخ والتقريع من الأساليب التربوية المكملة لبعضها، إذ قد يأتي التوبيخ أولًا ثم يعقبه التقريع، أو العكس، وغالبًا ما يُقصد بهما: الإهانة، والتنقيص، والتسخيف، وزيادة التنديم والتحسير؛ بسبب القيام بأعمالٍ قبيحة وشنيعة، كالكفر، والشرك بالله تعالى، وكبائر المعاصي والذنوب. وينبغي التنويه إلى أن هذا الأسلوب -كغيره من أساليب التربية

---

(١) المائدة: ٣٨.

(٢) الماعون: ٤-٥.

(٣) الرحمن: ١٣.

(٤) الدخان: ٤٩.

(٥) الزمر: ٤٧.

(٦) الكهف: ١٠٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإسلامية– يحتاج إلى خبرة وحكمة في تطبيقه؛ لأن المبالغة في استخدامه قد تترك آثارًا سلبية على المتعلم، فلا بد أن يكون العقاب على قدر الجرم المرتكب، من غير إفراط أو تفريط، فالمعلّم الكفء يراعي حال المتعلّم، ويتعامل معه بالأسلوب المناسب، إذ لا يختلف المعلم في هذا عن الطبيب الحاذق الذي يصف العلاج المناسب بالمقدار المناسب؛ يزيد جرعته عند الحاجة، أو يوقفه عند حدّ معين. وقد أشار ابن عثيمين رحمه الله إلى أهمية مراعاة حال الناس عند تطبيق أسلوب التوبيخ والتقريع، فقال: "ومعلوم أن من الناس من يحب أن يوسع جسمه ضرباً ولا يوبخ بكلمة واحدة، فالتوبيخ ليس بالأمر الهين".

سابعاً: تضمنت الآية موضوع المقال قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ**﴾، وجاءت لفظة ﴿**ظَلَّام**﴾ بصيغة المبالغة. قال الشنقيطي رحمه الله: "أن لفظة ﴿**ظَلَّام**﴾ فيها صيغة مبالغة، ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة هو نفي الظلم من أصله، وقد بينت آيات كثيرة معروفة أن المراد به نفي الظلم من أصله، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ**﴾(١) ، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ**

(١) النساء: ٤٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَظۡلِمُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: **﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾**(٢)، وقوله تعالى: **﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾**(٣)(٤).

ثامناً: قد يُصيب الإنسان في الحياة ابتلاءات متنوعة، هي بالتأكيد ليس من ظلم الله تعالى حاشا وكلا؛ وصدق الله العظيم: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾**، بل من كمال عدله سبحانه وحكمته جل جلاله وتقدست أسماؤه. قال ابن باز رحمه الله: "فالغالب على الإنسان التقصير وعدم القيام بالواجب، فما أصابه فهو بسبب ذنوبه وتقصيره بأمر الله، فإذا ابتلي أحد من عباد الله الصالحين بشيء من الأمراض، أو نحوها فإن هذا يكون من جنس ابتلاء الأنبياء والرسل رفعًا في الدرجات وتعظيمًا للأجور، وليكون قدوة لغيره في الصبر والاحتساب".

---

(١) يونس: ٤٤.

(٢) الكهف: ٤٩.

(٣) الأنبياء: ٤٧.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٣٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تاسعاً: من توفيق الله تعالى للعبد أن يرزقه بصيرة بنفسه يستكشف أحواله ويسبر أغوارها ويقف على جوانب تقصيرها فيعالجها أولاً بأول، وقد يخفى على الإنسان أحياناً بعض عيوبه فتؤدي به إلى سخط الله تعالى وهو غافل عنها، كالتسخط سراً أو علانية من أقدار الله تعالى المؤلمة، أو الكبر وحسد الأخرين بما رزقهم الله من خير، وهذه الأمور وما يدور في فلكها خطيرة، قد تجر عليه غضب الله تعالى وسخطه لما فيها من منافاة لكمال التوحيد، فالواجب على العبد أن يحرص على تحقيق التوحيد بالتسليم لأقدار الله المؤلمة مسترجعاً ومستعيناً به سبحانه وتعالى، قال صلى الله عليه وسلم: "ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك"(١) ، كما يجب عليه الحرص على سلامة صدره من أمراض القلوب؛ كالحسد والكبر، وهي من أعظم ما يُفسد علاقة العبد بربه، وما أخطر هذه الأمراض!! وما أعظم الأجر المعد لمن اجتهد في معالجتها، وهذا أمر مشاهد وملموس؛ وصدق الله تعالى: ﴿**إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**﴾(٢).

---

(١) الألباني، صحيح الجامع الصغير وزياداته، حديث رقم: ٥٢٤٤.

(٢) الأنفال: ٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١٤)

محكمة العدل الإلهية تَفُض النزاع يوم القيامة

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

محكمة العدل الإلهية تَفُض النزاع يوم القيامة

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[١].

تمهيد:

من أعظم الخطر أن يعيش الإنسان في غفلة لاهٍ قلبه ومُعْرِضاً عن الله تعالى، لا يرقب في الله إلاً ولا ذمة، وكأن الحياة دائمة له ولا حساب ينتظره ولا جزاء، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾[٢]. قال البغوي رحمه الله: "أي: لعباً وباطلاً لا لحكمة، لتلعبوا وتعبثوا كما خُلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وهو مثل قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾[٣]، وإنما خُلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله تعالى، ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾، أي: أفحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون في الآخرة للجزاء"[٤].

---

(١) الحج: ٦٩.

(٢) المؤمنون: ١١٥.

(٣) القيامة: ٣٦.

(٤) تفسير البغوي (٥/ ٤٣٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: والله يقضي بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه من أمر دينكم تختلفون، فتعلمون حينئذ أيها المشركون المحقّ من المبطل"(٥).

وقال ابن عثيمين رحمه الله: "﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ هذا للمستقبل بدليل قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، قوله: ﴿يَحۡكُمُ﴾ الحكم معناه: القضاء والفصل بين الشيئين، والله تبارك وتعالى يوم القيامة يقضي بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون، فيبين لصاحب الحق حقه ويجزيه به، ويبين لصاحب الباطل باطله ويجزيه به، هل الحكم يوم القيامة بين الناس هل هو بالعدل ولا بالفضل؟ نقول: لا يخلو إما بالعدل، أو بالفضل، أو بالظلم، والظلم منتف حرمه الله على نفسه وعلى عباده كما في الحديث القدسي: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا"(٦)، بقي العدل والفضل، فنقول أما بالنسبة لحقوق الناس فيما بينهم فالقضاء بالعدل، وأما بالنسبة لما بين العبد

---

(٥) تفسير الطبري (١٨/ ٦٨١).

(٦) صحيح مسلم: باب: تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٧٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبين ربه فالقضاء بالفضل، بالفضل؟ أي نعم، بالعدل بالنسبة للكافرين وبالفضل بالنسبة للمؤمنين".

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: هناك آيات كثيرة متشابهة في المعنى مع الآية موضوع المقال عن حكم الله تعالى بين العباد يوم القيامة، ومنها: قال الله تعالى: ﴿**قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ**﴾(٧)، وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾(٨)، وقوله عز وجل: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾(٩)، وقوله جل جلاله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾(١٠).

---

(٧) سبأ: ٢٦.

(٨) يونس: ٩٣.

(٩) الشورى: ١٠.

(١٠) السجدة: ٢٥.

ثانياً: حُكْمُ الله تعالى يوم القيامة بين الناس عَام، يشمل كُل ما اختُلف فيه من أمور الدين والدنيا، أمور الدين: مثل: العقائد، العبادات، الحلال والحرام، وكل ما يتعلق بأوامر الله ونواهيه، وأمور الدنيا: مثل: النزاعات والخصومات بين الناس، الحقوق والواجبات، وما يتعلق بالحياة اليومية من معاملات، ويوم القيامة هو: ﴿**يَوْمَ الْفَصْلِ**﴾ الذي يَفْصُل الله تعالى فيه بين عباده بالعدل المطلق في كل ما كانوا فيه يختلفون، وصدق الله العظيم: ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾(١١). قال الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: إن يوم فصل الله القضاء بين خلقه بما أسلفوا في دنياهم من خير، أو شرّ يجزي به المحسن بالإحسان، والمسيء بالإساءة ﴿**مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾: يقول: ميقات اجتماعهم أجمعين"(١٢).

ثالثاً: قول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**﴾ قال محمد طنطاوي رحمه الله: "هذا تهديد وإعراض"(١٣). ولمحة التهديد تبدو من تأكيد الله تعالى بأنه سبحانه سيفصل بين الخلائق يوم القيامة، ومن وقر في قلبه شيء من الإيمان

---

(١١) الدخان: ٤٠.

(١٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٤١).

(١٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٤٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

واستشعر ذلك يَخْفُقُ قلْبُه وجلاً من شدة الموقف ويستيقظ من غفلته ويؤوب إلى رشده باتباع الحق، فالأمر جد خطير، وليس بالأمر الهين، والمسؤولية كبرى للغاية عندما يتولى ملك الملوك قَيُّوم السموات والأرض سبحانه وتعالى الفصل بين الخلائق وهو أحكم الحاكمين وأعدل العادلين.

رابعاً: يجب على الإنسان أن يحرص كل الحرص على التخلُّص من حقوق العباد ومظالمهم في الدنيا، قبل أن يأتي يوم الجزاء، حيث لا مجال للتعويض بالماديات ولا فكاك من الحساب بين يدي أحكم الحاكمين. قال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عليه"(١٤). وقد بيَّن ابن باز رحمه الله أهمية هذا الأمر فقال: "الواجب على المؤمن أن يحرص على البراءة والسلامة من حق أخيه، بأن يرد إليه أو يتحلله منه، وإن كان عرضاً فلا بد من تحلله منه أيضا إن استطاع، فإن لم يستطع، أو خاف من مغبة ذلك كأن يترتب على إخباره شر أكثر؛ فإنه يستغفر له ويدعو له ويذكره بالمحاسن التي يعرفها عنه، بدلاً مما ذكره عنه من السوء في المجالس التي

---

(١٤) صحيح البخاري، باب: القصاص يوم القيامة، حديث رقم: ٦١٦٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

اغتابه فيها؛ ليغسل السيئات الأولى بالحسنات الآخرة ضد السيئات التي نشرها سابقاً، ويستغفر له ويدعو له".

خامساً: يُفهم من قوله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ**﴾ لمحةٌ من الإعراض، كما أشار إلى ذلك الشيخ محمد الطنطاوي رحمه الله في الفقرة (**ثالثاً**)، والمقصود بهذا الإعراض: الكفّ عن التمادي في الجدل العقيم مع المخالف، خاصةً إذا ظهر منه التعنت ورفض الانقياد للحق، رغم إقامة الأدلة الشرعية الواضحة عليه، من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، بفهم السلف الصالح رحمهم الله، وهنا يُربّى المؤمن على خلقٍ عظيم، وهو الترفع عن مجادلة أهل الباطل بعد بيان الحجة، وتفويض الأمر لله تعالى، الذي سيفصل بين العباد يوم القيامة بالعدل، كما قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ**﴾(١٥). وقد فسّر ابن كثير رحمه الله هذه الآية بقوله: "﴿**وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ أي: أتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ**﴾ أي: هو بصير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق

---

(١٥) غافر: ٤٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ"(١٦). ويُشير القرطبي رحمه الله إلى أن في الآية موضوع المقال أدبًا نبويًا رفيعًا، حيث قال: "أدب حسن علمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتاً ومراءً ألا يجاب، ولا يناظر، ويدفع بهذا القول الذي علمه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم"(١٧).

سادساً: من وفقه الله تعالى للهداية إلى صراطه المستقيم، فليحرص على لزوم هذا الطريق المبارك، وليجتهد في الاستقامة عليه في جميع شؤون حياته، قولًا وعملاً واعتقادًا، سرًّا وعلانية، فالاستقامة دليل الصدق وميزان الثبات، وهي أعظم ما يُوصى به السالكون طريق الحق، وقد أمر الله عز وجل نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو صفوة خلقه وأكملهم طاعة بالاستقامة، وأمر بها كذلك من تاب وآمن معه، فقال تعالى: ﴿**فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾(١٨). قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فاستقم أنت، يا محمد، على أمر ربك، والدين الذي ابتعثك

(١٦) تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٢).

(١٧) تفسير القرطبي (١٢/ ٩٤).

(١٨) هود: ١١٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

به، والدعاء إليه، كما أمرك ربك ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، يقول: ومن رجع معك إلى طاعة الله والعمل بما أمره به ربه من بعد كفره ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، يقول: ولا تعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يقول: إن ربكم، أيها الناس، بما تعملون من الأعمال كلِّها، طاعتها ومعصيتها ﴿بَصِيرٌ﴾، ذو علم بها، لا يخفى عليه منها شيء، وهو لجميعها مبصرٌ، يقول تعالى ذكره: فاتقوا الله، أيها الناس، أن يطَّلع عليكم ربكم وأنتم عاملون بخلاف أمره، فإنه ذو علم بما تعلمون، وهو لكم بالمرصاد"(١٩).

سابعاً: الإنسان في مسيرة حياته قد يتعرض لتلوث فكري، سواء من داخل بيئته أو من المؤثرات الخارجية، مما قد يؤدي إلى اضطراب فكره، وانحرافه عن صراط الله المستقيم، غير أن من أراد الله به خيرًا، يسّر له سبل الهداية، وفتح له أبوابًا توصله إلى معرفة الحق واتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾(٢٠). ومن واجب المسلم إذا رأى علامات الانحراف، أو التباس المسائل عليه، أن يبذل قصارى جهده في طلب الحق، وذلك بالسؤال والرجوع إلى العلماء الثقات من أهل السنة والجماعة، الذين

(١٩) تفسير الطبري (١٥/ ٤٩٩).

(٢٠) التغابن: ١١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حفظ الله بهم الدين، وهم -بحمد الله- كُثر، ولا بد له من التجرد من التعصب المذهبي الأعمى، والتبعية غير الواعية، التي قد ترث الباطل وتقلد الضلال، دون إدراك أو برهان، وقد ذم الله تعالى التقليد الأعمى، وكرر ذلك في سياق ذم المشركين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾(٢١)، وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾(٢٢). قال المراغي رحمه الله: "كرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين، وحث على النظر والاستدلال والاعتماد على البرهان في مثل قوله: ﴿**قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ**﴾(٢٣). وبهذا كان الإسلام دين العقل والفطرة، وينبوع الهدى والحكمة والرحمة"(٢٤).

ثامناً: يشهد الجميع في هذا العصر الانتشار الواسع والمتسارع لوسائل الاتصال الحديثة، التي تنقل الأخبار والمعلومات من شتى بقاع العالم، في لحظات معدودة، بغثها وسمينها، وبما تحمله من اتجاهات ومضامين متباينة،

---

(٢١) الزخرف: ٢٢.

(٢٢) الزخرف: ٢٣.

(٢٣) النمل: ٦٤.

(٢٤) تفسير المراغي (٨/ ١٦٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد أصبحت هذه الوسائل جزءًا لا يتجزأ من حياة الناس بمختلف أعمارهم، يزداد تعلقهم بها يوماً بعد يوم، ولا ريب أن هذه الوسائل تمثل سلاحًا ذا حدين؛ فهي من جهة تُيسِّر الوصول إلى المعارف، وتُسهم في تعزيز الوعي، وتخدم مصالح الناس في شتى الميادين، لكنها من جهة أخرى، أصبحت منفذًا خطيرًا لأهل الأهواء والضلال، لبث سموم الأفكار المنحرفة، ونشر الشبهات، والطعن في الثوابت، وتشويه العقائد، وإفساد الأخلاق، لا سيما لدى فئة الشباب والناشئة، ولا يختلف اثنان من العقلاء على خطورة هذا التحدي وما ينطوي عليه من آثار مدمرة على الأفراد والمجتمعات والأمة بأسرها، وكما قيل في الحكم: "الوقاية خير من العلاج"، و"درهم وقاية خير من قنطار علاج"، من هنا، فإن الواجب يحتم على الأسرة والمدرسة، والعلماء وطلاب العلم، والمختصين والمربين كل في موقعه أن يبذلوا غاية الجهد في التحصين الفكري والتربوي، والتصدي لهذه الحملات الضالة، بالكشف عن أهدافها ووسائلها، وتوعية الناشئة بمخاطرها، من خلال برامج نوعية، ومبادرات توعوية متقنة تحاكي واقعهم وتخاطب عقولهم بلغة العصر وأسلوبه، حفاظًا على القيم، وصيانة للعقيدة، وحرصًا على سلامة المجتمع.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نسأل الله تعالى أن يكفينا شر المفسدين، وأن يجعل بأسهم بينهم، وأن يوفقنا جميعًا للقيام بما أوجب علينا من البلاغ والنصح، إنه سميع مجيب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

شبكة الألوكة
www.alukah.net

(١٥)

العلم اليقيني يصدر عن خبرة

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العلم اليقيني يصدر عن خبرة

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٢٥].

تمهيد:

القرآن الكريم منهج حياة، من تمسك به أنار له طريقه بأفضل السُّبل، قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[٢٦]. قال الطبري رحمه الله: "﴿نُورًا مُّبِينًا﴾، يعني: يبين لكم المحجَّة الواضحة، والسبل الهادية إلى ما فيه لكم النجاة من عذاب الله وأليم عقابه، إن سلكتموها واستنرتم بضوئه، وذلك "النور المبين"، هو القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم"[٢٧]. فالواجب التمسك به والعض عليه بالنواجذ، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢٨]. قال ابن

---

(٢٥) فاطر: ١٤.

(٢٦) النساء: ١٧٤.

(٢٧) تفسير الطبري (٩/ ٤٢٨).

(٢٨) الزخرف: ٤٣.

كثير رحمه الله: "أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم"(٢٩).

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الرازي رحمه الله: "قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يُحتمل وجهين أحدهما: أن يكون ذلك خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده، وذلك أمر لا يُعلم بالعقل المجرد لولا إخْبَار الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(٣٠). وهذا القول مع كون الخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال، لأن المخبر عنه خبير. وثانيهما: هو أن يكون ذلك خطاباً غير مختص بأحد، أي: هذا الذي ذكر هو كما قال: ولا ينبئك

(٢٩) تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٠).

(٣٠) فاطر: ١٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أيها السامع كائناً من كنت مثل خبير"(٣١). ووافقه ابن عادل الحنبلي رحمه الله في تفسيره اللباب(٣٢) فيما ذهب إليه جملة وتفصيلاً.

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: القرآن الكريم فيه الخير كله؛ وكل جملة، وكل عبارة، وكل كلمة، وكل حرف تحمل من المعاني، والفوائد، والهدايات ما لا يدرك مداها إلا الله تعالى، فهو كلام رب العالمين، ﴿**تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾(٣٣)، وهو القائل سبحانه: ﴿**إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾(٣٤). قال السعدي رحمه الله: "يُخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿**يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾، أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره"(٣٥).

(٣١) تفسير الرازي (٢٦/ ٢٢٩).

(٣٢) اللباب في علوم الكتاب (١٦/ ١١٩).

(٣٣) فصلت: ٤٢.

(٣٤) الإسراء: ٩.

(٣٥) تفسير السعدي (ص: ٤٥٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثانياً: عبارة المقال القرآنية ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ توجيه مهم للعناية بالخبرة وأهلها والاستفادة منهم كل في مجال اختصاصه. قال ابن عثيمين رحمه الله: "وهذه الجملة سارت مسرى المثل عند العرب، إذا أرادوا أن يؤكدوا الشيء قالوا: ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾، أو أحياناً يقولون: "على الخبير سقطت"؛ يعني: وصلت إلى العلم اليقيني الذي يصدر عن خبرة"، ويؤكد عبد الله خضر حمد: "أنه لا يخبر المرء بحقيقة الأمر، وبواطنه وغوامضه، مثل من هو عالم بدقائقه، بصير بتفاصيله، ومن كانت هذه حاله وجب الرجوع إليه في ذلك، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، كما هو مقرر في الأصول"(٣٦).

ثالثاً: من تطبيقات عبارة المقال القرآنية ما جاء مؤكداً في السنة النبوية المطهرة عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: "اسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، هَادِيًا خِرِّيتًا، - الْخِرِّيتُ: الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ - وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ

(٣٦) الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية، (٤/ ١٣٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ"[٣٧]. فهذا الموقف النبوي يجسّد عمليًّا المعنى العميق للآية ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، حيث اختار النبي صلى الله عليه وسلم دليلًا ماهرًا خبيرًا بمسالك الصحراء ودروب الهجرة، رغم كونه على غير دين الإسلام، لما فرضه الواقع، وللحاجة إلى أداء مهمة دقيقة وحاسمة في حينها كالهجرة النبوية الشريفة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

رابعاً: يوجد تفاوت واضح بين التأهيل الأكاديمي والخبرة العملية، فمع أن بعض المؤسسات التعليمية تولي اهتمامًا كبيرًا بإعداد برامج تخصصية تدمج بين الجانب النظري والتطبيقي بهدف تلبية احتياجات سوق العمل، إلا أن الواقع يُظهر ضعفًا في الكفاءة العملية لدى كثير من خريجي هذه البرامج، مقارنة بمن يمارسون تلك التخصصات في الميدان العملي منذ سنوات، رغم أن بعضهم لا يحمل مؤهلًا أكاديميًّا أو يحمل مؤهلات متدنية، وهذا الواقع يؤكد أهمية الممارسة العملية المستمرة في بناء الخبرة الفعلية، ويفسر كيف يمكن للخبرة أن تتفوق على الشهادة، بل وأن تتقدم عليها في

(٣٧) صحيح البخاري، باب: إذا استأجر أجيرا ليعمل له بعد ثلاثة أيام أو بعد شهر أو بعد سنة جاز، حديث رقم: ٢١٤٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مواقف الأداء الفعلي واتخاذ القرار، ومن هنا تبرز الحكمة التربوية العميقة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، فالخبير قادر على إعطاء الصورة الواقعية الأقرب إلى الصواب في مجاله، نظرًا لتراكم التجربة، وعمق الإدراك العملي، ولا يُفهم من ذلك البتة إهمال التخصص العلمي، فله اعتباره وأهميته، ويمكن القول: أن اجتماع العلم مع الخبرة أجود وأكمل.

خامساً: من أبرز المجالات التي تشتد فيها الحاجة إلى الخبرة وضرورة الرجوع إلى أهلها، مجال القضاء والإفتاء، لما فيه من تبعات شرعية ومسؤوليات جسيمة، لا تحتمل الظن أو التخمين. وقد أكد عبد الله خضر حمد على هذا المعنى بقوله: "أن المفتي في بعض المسائل، لا يستطيع أن يُحرر فتوىً، أو يُصدر حُكْماً شرعياً، بدون تصور المسألة، وإفادة أهل الاختصاص له في ذلك؛ فالحكم على المريض بأن الصوم يضره، أو يؤثر فيه؛ يحتاج إلى طبيب عالج ذات المريض، وتابع حالته التي هو عليها، فإن السماح بالصيام أو عدمه، إضافة إلى تنظيم الدواء وأوقات تناوله، يعود إلى الطبيب المعالج دون غيره"[٣٨]. وهذا المثال الواقعي يعكس عمق دلالة الآية ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، ويبرز الحاجة الأكيدة إلى الخبير في كل مسألة

(٣٨) الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية، (٤/ ١٣٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

متخصصة، حتى لو كان الفقيه أو المفتي على قدر عالٍ من العلم، إذ لا تكفي المعرفة النظرية دون تصور واقعي دقيق، والتصور لا يتم إلا عبر الخبير الميداني.

سادساً: في ظل تعقّد الحياة المعاصرة، وتسارع التخصصات وتزايد الاعتماد على أصحاب الخبرة في اتخاذ القرارات، تبرز حاجة ملحّة إلى ضبط مفهوم "الخبرة" وتنظيم منح شهاداتها؛ تفاديًا لتصدّر من ليسوا أهلًا لذلك، ودرءًا لما قد يترتب على ادعاء الخبرة من أضرار علمية أو عملية جسيمة، فليس كل من ادعى المعرفة خبيرًا، ولا كل من خاض ميدانًا امتلك أدواته. ولهذا فإن من الضروري أن تضطلع الجهات المختصة بوضع معايير واضحة لمنح صفة "الخبير" وشهاداتها، على أن تُعتمد هذه المعايير على الدمج بين الكفاءة العلمية والممارسة العملية، وأن تُمنح من خلال مراكز متخصصة تضم خبراء مشهودًا لهم بالتأهيل في مجالاتهم، لضمان الكفاءة والمصداقية. وهذا التوجّه التنظيمي يعكس جوهر الآية القرآنية ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾، إذ يُفهم منها ضرورة التمييز بين من يدّعي المعرفة، ومن يمتلكها بحق، ولا يتحقق ذلك إلا بوجود جهة فاحصة قادرة على التحقق من صدق الخبرة وتوثيقها وفق معايير علمية دقيقة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سابعاً: انطلاقًا من القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾(٣٩). ومن تأكيد القرآن الكريم في قوله: ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾، فإن الخبرة والعلم لا حدود لهما، ولا يقفان عند شخص أو أمة أو زمن معين، بل هما فضاء مفتوح لكل من جدّ وسعى وبذل، فهما منحة إلهية تُعطى لمن يستحقها ويسعى لتحصيلها، حيث إن الخبرات الإنسانية ليست حكرًا على فئة أو شعب أو دين، فإن على المسلم أن يُقدّر هذه القيمة الكونية، ويحرص على الاستزادة الدائمة من المعرفة والخبرة، كلٌ في مجال تخصّصه، وأن يسلك كل سبيل مشروع لاكتساب الخبرة العملية والعلمية، مستفيدًا من كل مصدر نافع، مهما كان مصدره، ما دام لا يخالف ثوابت الشريعة، فالذي يجتهد في ميدانه ويتعمق في تخصصه، ويجمع بين العلم الدقيق والخبرة الراسخة، سيكون له نصيب من الثقة والقبول والتأثير، وسيحصد ثمرة هذا الجهد في صورة نجاح شخصي، وعطاء اجتماعي نافع يعود بالخير على مجتمعه وأمته، وهذا هو عين ما تؤكده آية المقال: ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾، إذ لا يبلغ الإنسان مرتبة "الخبير" إلاّ عبر طريق الاجتهاد المستمر، والتعلم المتواصل، والتدرّب العملي، والتواضع العلمي أمام

---

(٣٩) يوسف: ٧٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كل من يملك علمًا أو خبرة أعلى، وهو ما تتكامل معه القاعدة الأخرى: "وفوق كل ذي علمٍ عليم"، التي ترسّخ مبدأ التواضع والتعلّم الدائم.

www.alukah.net

(١٦)

الثقة باللّه: فله جنود السماوات والأرض

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الثقة بالله: فله جنود السماوات والأرض

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٤٠].

تمهيد:

إن الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وعظمته وقدرته في ملكوته لا تُحصى ولا تُعد، بل إن كل ما في هذا الكون ينطق بتلك الحقيقة الكبرى، وصدق من قال:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

فالسعيد الموفق من تأمل وأدرك هذه الآيات واستقرت في قلبه ووجدانه، وكانت دافعًا له على تحقيق العبودية لله تعالى والثبات على شرعه، وقد بثّ الله عز وجل آيات توحيده ودلائل ربوبيته في الآفاق والأنفس، لتكون شاهدة للعقول السليمة والفطر المستقيمة بأن الله هو الحق، وأن الإيمان به ليس مجرد ترانيم منمقة تُقال، أو روايات تتلى، بل حقيقة راسخة في كل ما يُرى ويُدرك، قال تعالى: **﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ**

(٤٠) الفتح: ٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شَهِيدٌ﴾(٤١). ومن أعظم هذه الآيات: جنود الله في السماوات والأرض، التي لا يحصي عددها ولا يعلم كنهها إلا هو سبحانه، وهو القائل جل جلاله: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ**﴾(٤٢)، فهي مظهر من مظاهر قدرته، ومما وعد سبحانه أن يُريَه لعباده في الآفاق ليزدادوا يقينًا بأنه الحق.

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الطبري رحمه الله: "يقول جل ثناؤه: ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ أنصاراً على أعدائه، إن أمرهم بإهلاكهم أهلكوهم، وسارعوا إلى ذلك بالطاعة منهم له ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾، يقول تعالى ذكره: لم يزل الله ذا عزة، لا يغلبه غالب، ولا يمتنع عليه مما أراده به ممتنع، لعظم سلطانه وقدرته، حكيم في تدبيره خلقه"(٤٣).

وقال السعدي رحمه الله: "الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر

---

(٤١) فصلت: ٥٣.

(٤٢) المدثر: ٣١.

(٤٣) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٠٦).

جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ**﴾(٤٤)، ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ أي: قوياً غالباً، قاهراً لكل شيء، ومع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتدبيره، يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه"(٤٥).

وقال محمد سيد طنطاوي رحمه الله: "بين سبحانه شمول ملكه وقدرته فقال: ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾، أي: ولله تعالى وحده جنود السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس، إذ الكل تحت قهره وسلطانه، فهو سبحانه الذي يدبر أمرهم كيف شاء، ويدفع بعضهم ببعض كما تقتضي حكمته وإرادته، وهو تعالى العليم بكل شيء، الحكيم في جميع أفعاله"(٤٦).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

موضوع الآية مهم جداً، وتحمل في طياتها دلالات تربوية وإيمانية عميقة، وسأبذل جهدي بقدر المستطاع في استعراض ما أراه مناسبًا ويحقق

(٤٤) الصافات: ١٧٣.

(٤٥) تفسير السعدي (ص: ٧٩٢).

(٤٦) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٣/ ٢٦٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بعون الله وقوته الفائدة المؤملة من ذلك. وقد جاء هذا المقال موزعًا على قسمين:

القسم الأول: عرض عام لمعنى جنود الله تعالى.

القسم الثاني: ذكر أهم الملامح التربوية المستنبطة من الآية الكريمة.

القسم الأول: عرض عام لمعنى جنود الله تعالى.

أولاً: إن كلمة "جنود" هي جمع "جند"، وقد بيّن ابن منظور أن "الجند" معروف، ويُطلق على الأعوان والأنصار، كما يُطلق على العسكر[٤٧]. وفي التفسير الوسيط للقرآن الكريم، جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ**﴾[٤٨]: "الجنود: جمع "جند". وقد اشتهر استعماله في العسكر، اعتبارًا بالغلظة، وذلك مأخوذ من أصل الكلمة المرتبطة بـ"الجند" بمعنى الأرض الغليظة التي تكثر فيها الحجارة، ويقال لكل

---

(٤٧) لسان العرب، فصل الجيم، (١٣٢/٣).

(٤٨) المدثر: ٣١.

جمع: "جند"، أَي: وما يعلم جموع خلقه التي من جملتها الملائكة إِلا هو عز وجل"[٤٩].

ثانياً: قد يرد في الذهن سؤال ابتداءً: وهو: **هل الله عز وجل محتاج إلى جنود يدافعون عنه أو ينصرونه؟** وننتقل بالسؤال إلى ابن عثيمين رحمه الله ليتحفنا بالإجابة عليه بكل وضوح، فيقول: "الجواب: لا، ولا يمكن أن يكون محتاجاً، لكن سُمّوا جُنوداً مع أنه لا حاجة به إليهم؛ لأنهم يقومون بأمره، ويدافعون عن أوليائه، فهم بمنزلة الجنود، وإلا فالله عز وجل لا يحتاج إليهم ولا إلى غيرهم فإنه غني عن كل أحد"[٥٠].

ثالثاً: تأتي في نفس سورة الفتح، وقبل الآية محل المقال في الترتيب، آيةٌ أخرى تَضُم الشطر نفسه الذي ورد في الآية موضوع المقال، وهي قوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا**﴾[٥١].

ويُلاحظ أن الآيتين تتطابقان في قول الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ**

(٤٩) التفسير الوسيط، إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (١٠/ ١٦٦٧).

(٥٠) تفسير العثيمين، سورة الأحزاب، ص ٩٨.

(٥١) الفتح: ٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وخُتمت كل واحدة منهما بأحد أسمائه الحسنى المتضمنة لمعاني الحكمة، بما يلائم سياق كل آية: ففي الآية السابقة التي تتحدث عن إنزال السكينة وزيادة الإيمان، خُتمت بقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾، وهي مناسبة للسياق الذي يتطلب علمًا دقيقًا بحال المؤمنين وقلوبهم، وحكمةً في إنزال السكينة عليهم وتربيتهم إيمانيًّا، أما الآية التي هي موضوع المقال، فقد خُتمت بقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾، وهو ختام يتناسب مع سياق النصر والتمكين، إذ يتجلى فيه وصف العزة، وهي القوة الغالبة التي لا تُقهر، المقترنة بالحكمة التي تُوَجِّه هذه القوة نحو ما تقتضيه المشيئة الإلهية الحكيمة، وتكرار ذكر "جنود الله" في الموضعين تأكيد على شمول قدرته تعالى، وأن جنود السماوات والأرض جميعًا تحت تصرفه وتدبيره، يسخرهم كيف يشاء، نصرةً لعباده، وتحقيقًا لمراده، وذلك من بديع النَّسق القرآني الذي يراعي دقة المقام وحكمة الانتقال بين الأسماء والصفات بما يناسب السياق.

رابعاً: تنوّعت أقوال المفسرين في بيان معنى "جنود الله" تعالى، بين من قصره على الملائكة والإنس والجن، ومن وسّع دلالته لتشمل جميع

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المخلوقات. فقد أشار ابن الجوزي رحمه الله إلى أن لفظ "الجنود" في القرآن الكريم جاء على خمسة أوجه، وهي:

أحدها: الملائكة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ**﴾[٥٢]، أراد الملائكة على الإطلاق، وقيل: زبانية النار خاصة.

الثاني: الرسل والمؤمنون، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ**﴾[٥٣].

الثالث: الذرية، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ**﴾[٥٤]، أراد ذريته وهم الشياطين.

الرابع: الجموع، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا**﴾[٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ**﴾[٥٦]، وفي البروج: ﴿**هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ**﴾[٥٧].

---

(٥٢) المدثر: ٣١.

(٥٣) الصافات: ١٧٣.

(٥٤) الشعراء: ٩٥.

(٥٥) النمل: ٣٧.

(٥٦) القصص: ٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الخامس: الناصرون، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا**﴾[٥٨]، أراد ناصراً وقيل أمراً[٥٩].

وفي ذات السياق، قدّم الرازي رحمه الله في تفسيره توسعًا في دلالة "جنود الله"، فذكر ثلاثة أوجه رئيسة:

أحدها: ملائكة السموات والأرض.

ثانيها: من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الحيوانات والجن.

وثالثها: الأسباب السماوية والأرضية حتى يكون سقوط كسف من السماء والخسف من جنوده[٦٠].

خامساً: إن جنود الله تعالى لا يُحصي عددها ولا يحيط بتنوعها أحد من خلقه، إذ لا يعلمها على وجه التمام إلا الله وحده، كما جاء في قوله

---

(٥٧) البروج: ١٧.

(٥٨) مريم: ٧٥.

(٥٩) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ص ٢٣٣.

(٦٠) تفسير الرازي (٢٨/ ٦٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ**﴾[٦١]. ورغم أن الآية وردت في سياق الحديث عن الملائكة. فقد أشار عدد من المفسرين إلى عمومها، وأن المراد بها جميع جنود الله من مخلوقاته. فقال الشوكاني رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: "أي: ما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد"[٦٢]. ويؤيد هذا المعنى ما ذكره الجزائري رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾[٦٣]، "أي: ملائكة السماء وملائكة الأرض وكل ذي شوكة وقوة من الكائنات هو لله كغيره، ويسخره كما شاء ومتى شاء"[٦٤].

سادساً: يشهد لتعدد جنود الله تعالى وتنوعهم ما قصّه القرآن الكريم عن تسخير الله سبحانه وتعالى لنبيه سليمان عليه السلام، من قوى عظيمة وأجناد متنوعة، فقد سخر الله له الريح، كما قال سبحانه: ﴿**وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ**﴾[٦٥]، وجمع له من الجنود ما لا يطيق البشر

---

(٦١) المدثر: ٣١.

(٦٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٩٧).

(٦٣) الفتح: ٤.

(٦٤) أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٩٥).

(٦٥) الأنبياء: ٨١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جمعه، من الجن والإنس والطير، يسيرون معه في مواكب مهيبة منظمة، كما قال تعالى: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾(٦٦). وقد علّق السعدي رحمه الله على هذا المشهد بقوله: "وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره، لا تقدر على عصيانه ولا تتمرد عنه، قال تعالى: ﴿**هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾(٦٧)، أي: أعط بغير حساب"(٦٨). فإذا كان هذا ما سُخِّر لنبي من أنبياء الله، فكيف بجنود الله سبحانه وتعالى!! وهو الذي له ملك السماوات والأرض، يدبر الأمر كيف يشاء، ويأمر من جنوده من يشاء بما يشاء، وهو على كل شيء قدير، جل جلاله وتقدّست أسماؤه.

سابعاً: من دلائل عظمة جنود الله تعالى وتنوعهم، تسخيره سبحانه لبعض مخلوقاته لإهلاك الجبابرة والطغاة، ممن تجاوزوا الحد في البغي والعدوان. ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم من شواهد عظيمة، منها:

---

(٦٦) النمل: ١٧.

(٦٧) ص: ٣٩.

(٦٨) تفسير السعدي (ص: ٦٠٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأول: حينما عزم أبرهة وجيشه على هدم الكعبة المشرفة، أهلكهم الله بوسيلة خارجة عن التقدير البشري، فقال تعالى: ﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ**﴾(٦٩). وقد علّق محمد سيد طنطاوي رحمه الله على هذه الآية بقوله: "لقد جعل الله تعالى كيد هؤلاء المعتدين في تضييع وتخسير، بأن أرسل إليهم جماعات عظيمة من الطير، أتتهم من كل جانب في تتابع، فكانت سببًا في إهلاكهم والقضاء عليهم"(٧٠). ثم ختم بقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ**﴾، في دلالة على أن جنود الله لا تُحد ولا تُحصى.

الثاني: عاقب الله تعالى قوم عاد، الذين استكبروا وكذبوا، بإرسال ريح شديدة مهلكة، فقال سبحانه: ﴿**وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ**﴾(٧١). قال البغوي رحمه الله: "أي: وفي إهلاك عاد أيضاً آية ﴿**إِذْ**

---

(٦٩) الفيل: ٣-٤.

(٧٠) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٥/ ٥١١).

(٧١) الذاريات: ٤١.

﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾، وهي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً"[٧٢].

الثالث: عندما طغى فرعون وتجبّر، أرسل الله تعالى عليه وعلى قومه أنواعًا من العذاب، فقال سبحانه: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾**[٧٣]، فكل واحدة من هذه الآيات كانت جندًا من جنود الله، سلطها عليهم بحسب حكمته وعدله.

الرابع: من أعظم مشاهد تسخير جند الله، ما كان من هلاك فرعون وجنوده في البحر، قال تعالى: **﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**[٧٤]. قال الشعراوي رحمه الله تعليقًا على هذه الآية: "أي: نهايتهم وقد جاءت عجيبة من عجائب الزمن وآية من آيات الله، فالبحر والماء جُنْد من جنود الله، تنصر الحق وتهزم الباطل، وقد ذكرنا

---

(٧٢) تفسير البغوي (٧/ ٣٧٨).

(٧٣) الأعراف:١٣٣.

(٧٤) القصص: ٤٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كيف أنجى الله موسى عليه السلام وأهلك فرعون بالشيء الواحد حين أمر الله موسى أنْ يضرب بعصاه البحر، فصار كل فِرْق كالطود العظيم"(٧٥).

ثامناً: جاء في السنة النبوية ما يدل بوضوح على كثرة جنود الله تعالى وتنوعهم، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ"(٧٦). وقد بيّن ابن باز رحمه الله معنى الحديث بقوله: "أي: أنها جنودٌ مُؤلَّفةٌ، مُصنَّفةٌ، مُقسَّمةٌ على حسب عقائدها، وأخلاقها، وما تهواه، وما ترمي إليه، فما تعارف منها على شيءٍ ائتلف: أهل الإيمان على إيمانهم وتقواهم، وأهل الشر على شرِّهم وفسقهم"(٧٧). ووضح عبد المحسن العباد معنى "جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ"، "أي: أنها جند من جنود الله الكثيرة التي خلقها الله تعالى وأوجدها"(٧٨). ومن الشواهد الأخرى في السنة على تسخير الله لبعض مخلوقاته لنصرة أنبيائه، ما رواه النبي صلى الله عليه وسلم عن نصر الله تعالى له وتدبيره له في ميدان المعركة، فقال: "نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ

---

(٧٥) تفسير الشعراوي (١٨/ ١٠٩٣٠).

(٧٦) صحيح البخاري، باب: الأرواح جنود مجندة، حديث رقم: ٣١٥٨.

(٧٧) شرح صحيح البخاري، موقع الإمام ابن باز رحمه الله.

(٧٨) شرح سنن أبي داود، المكتبة الشاملة، ١٤٣٢هـ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بِالدَّبُورِ"(١). وفي هذا الحديث إشارة واضحة إلى أن الرياح من جنود الله، يسخرها كيف يشاء؛ فيجعل منها رحمةً ونصرةً لعباده المؤمنين، ويجعل منها عذابًا وهلاكًا لمن كفر وطغى، كلٌّ بحسب إرادته وحكمته.

القسم الثاني: ذكر أهم الملامح التربوية المستنبطة من الآية الكريمة.

أولاً: تُرَسِّخ الآية الكريمة موضوع المقال أصلًا عظيمًا من أصول الإيمان، وهو توحيد الربوبية، وذلك بإثبات أن الله تعالى وحده هو المالك الحقيقي لكل ما في السماوات والأرض، المتصرّف فيهما بلا منازع، وأن له وحده القدرة المطلقة التي لا تحدها حدود، ولا يعجزها شيء، صغر أو كبر، فكل ما في الكون من أعظم المخلوقات إلى أدقها هو من ملك الله وسلطانه، خاضع لأمره، منفذ لمشيئته، لا يخرج عن تدبيره شيء، كما قال سبحانه: ﴿**لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرُۢ**﴾(٢). قال القاسمي رحمه الله: "أنه المالك لا غيره، فلا شريك له، ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾؛ أي: مبالغ في القدرة، فالجميع ملكه وتحت

(١) صحيح البخاري، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا، حديث رقم: ١٠٣٥.

(٢) المائدة: ١٢٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قهره، وقدرته، ومشيئته، فلا نظير له ولا وزير، لا إله غيره ولا رب سواه"[١].

ثانياً: تَبْعَثُ الآية الكريمة محلّ المقال في النفس الطمأنينة والرضا بقضاء الله تعالى، خاصة في أوقات الشدة والابتلاء، وتَغرس من خلالها الثقة بنصر الله وتدبيره، إذ إن النصر والهزيمة لا يتوقفان على كثرة العدد أو قوة العدة، بل هما بمشيئة الله وحده، وتقديره الذي لا يُغالب، وقد بيّن الله تعالى هذه الحقيقة في قوله: ﴿**فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ**﴾[٢]. وعلق ابن كثير رحمه الله على الآية بقوله: "يُبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿**فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ**﴾، أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، بل هو الذي أظفركم بهم ونصركم عليهم كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ**﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿**لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم**

---

(١) تفسير القاسمي (٤/ ٣٠٥).

(٢) الأنفال: ١٧.

(٣) آل عمران: ١٢٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مُّدۡبِرِينَ﴾(١) يُعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى، كما قال: ﴿**كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾(٢)"(٣). ففي كل ذلك إشارة واضحة إلى أن الاعتماد الحقيقي يجب أن يكون على الله، لا على الأسباب الظاهرة فقط، مع أهمية اتخاذها دون أن تُعَدّ غاية في ذاتها، إذ النصر من عند الله وحده، يسوقه لمن يشاء من عباده الصادقين الصابرين.

ثالثاً: خُتمت الآية الكريمة موضوع المقال بذكر اسمين كريمين من أسماء الله الحسنى، وهما: ﴿**عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾، وهما وصفان جليلان لله تعالى، يجمعان بين كمال القدرة والغلبة، وكمال الحكمة والتدبير، فلا يكون شيء في هذا الكون إلا بقوته القاهرة وحكمته البالغة، فـ"العزيز"، وأصله من العِزْ. قال ابن الجوزي رحمه الله: "العِزّ في كلام العرب على ثلاثة أوجه: أحدها: بمعنى الغلبة، والثاني: بمعنى الشدة والقوة، والثالث: أن يكون بمعنى نفاسة

---

(١) التوبة: ٢٥.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القدر، ويتأول معنى العزيز على أنه الذي لا يعادله شيء، ولا مثل له"(١).

أما "الحكيم"، قال السعدي رحمه الله: "هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾. فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرّع شيئاً سُدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره وجزائه"(٢).

رابعاً: إن الجمع بين العزة والحكمة في ختام الآية له أثر تربوي عميق؛ إذ يُعلّم المسلم أن ما يقع في الكون من نصر أو هزيمة، رخاء أو شدة، هداية أو ضلال، فهو واقع بقدرة العزيز وبحكمة الحكيم، مما يورث القلب طمأنينة وثقة بأن الله لا يُسلّط الظالم، ولا يُؤخر النصر، ولا يُقدّر الابتلاء إلاّ لحكمة، قد يُدركها العبد، وقد لا يُدركها. وعلى أية حال فإن الإيمان بهذين الاسمين العظيمين يُربي المسلم على التسليم لحكم الله، والرضا بتقديره، والثقة بموعوده، كما يُعلّمه ألا يغتر بقوة ظاهرة ولا ييأس من ضعفٍ ظاهر، فالنصر

(١) زاد المسير (١/ ١١٣).

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، الجامعة الإسلامية بالمدينة، العدد: ١١٢، ١٤٢١هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ليس حكرًا على الأسباب المادية، بل هو بيد الله العزيز الحكيم، يُعطيه من يشاء، ويمنعه عمن يشاء، بحكمةٍ يعلمها سبحانه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١٧)

تقلب الأحوال سنة إلهية جارية

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تقلب الأحوال سنة إلهية جارية

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[١].

تمهيد:

إن تقلب أحوال الناس في هذه الحياة، من غنى إلى فقر، ومن رفعة إلى خفض، ومن صحة إلى سقم، سنة ماضية من سنن الله في خلقه، لا تتبدل ولا تتخلف، وهي تدبير إلهي قائم على الحكمة والعدل، قال الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[٢]. وقد فسّر السعدي رحمه الله هذه الآية بقوله: "يغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض"[٣]. مما يدل على أن تغير الأحوال وتبدل الأقدار أمر دائم في كل لحظة، وهو من دلائل قدرة الله وعظمته وتدبيره المطلق، وهذا التغير من سمات الحياة الدنيا، فإنها لا تستقر على حال، ولا تدوم لأحد، كما قال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[٤]. قال الحسن البصري رحمه الله: "أي:

---

(١) الواقعة: ٣.

(٢) الرحمن: ٢٩.

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٣٠).

(٤) الانشقاق: ١٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة"(٥). وليس هذا التقلب قاصراً على الحياة الدنيا، بل يمتد أثره إلى يوم القيامة، حيث تتغير أحوال الناس وتتبدل من حال إلى حال. فقد أشار الرازي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ "أن الناس تنتقل أحوالهم يوم القيامة عما كانوا عليه في الدنيا؛ فمن وضيع في الدنيا يصير رفيعاً في الآخرة، ومن رفيع يتضع، ومن متنعم يشقى، ومن شقي يتنعم، وهو كقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾(٦)"(٧).

وفي ضوء ما تقدم، يتبين أن تقلب الأحوال سنة إلهية جارية في الدنيا والآخرة، تُظهر عظمة تدبير الله وعدله، وتدعو الإنسان إلى التأمل في حاله، والتعلق بربه، والاستعداد لما هو آت، إذ لا دوام لحال، ولا أمن من تبدل، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾.

---

(٥) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٥٥).

(٦) الواقعة: ٣.

(٧) تفسير الرازي (٣١/ ١٠٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

ذكر الثعلبي رحمه الله في تفسيره الكشف والبيان عن تفسير القرآن عدة أقوال لمعنى قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، فقال: "أي: تخفض قومًا إلى النار، وترفع آخرين إلى الجنة، وقيل: خفضت الصوت فأسمعت مَن دنا ورفعت الصوتَ فأسمعت من نأى، يعني: أنَّها أسمعت القريب والبعيد، وقيل: خفضت المتكبرين ورفعت المستضعفين، يعني: رفعت قومًا كانوا مذللين فرفعتهم إلى أعلى عليين ووضعت قومًا كانوا في الدنيا مرتفعين فوضعتهم إلى أسفل السافلين، وقيل: خفضت قومًا بالعدل ورفعت آخرين بالفضل"(٨).

وقال ابن عاشور رحمه الله: "أي: يحصل عندها خفض أقوام كانوا مرتفعين ورفع أقوام كانوا منخفضين، وذلك بخفض الجبابرة والمفسدين الذين كانوا في الدنيا في رفعة وسيادة، وبرفع الصالحين الذين كانوا في الدنيا لا يعبؤون بأكثرهم، وهي أيضا خافضة جهات كانت مرتفعة كالجبال والصوامع، رافعة ما كان منخفضاً بسبب الانقلاب بالرجات الأرضية"(٩).

---

(٨) تفسير الثعلبي (٩/ ٢٠٠).

(٩) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

جاءت الآية الكريمة ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ في سياق وصف أهوال يوم القيامة، وما يشهده ذلك اليوم العظيم من انقلابات مروّعة في أحوال العباد ومصائرهم، ومن هذا المنطلق، تتوجه الملامح التربوية المستنبطة من هذه الآية المباركة إلى التركيز على مشاهد القيامة وما تحمله من معانٍ عظيمة تستحثّ القلوب على التذكر والخشية، وتدعو النفوس إلى الاستعداد لهذا اليوم بالمحاسبة والإصلاح، وسأبذل جهدي المتواضع في عرض بعض هذه الملامح، رجاء النفع والتذكير، مع التنبيه إلى أن هذا الموضوع متعدد الجوانب، ومن أراد التوسّع فيه فليُراجع ما كتبه العلماء، ومن الكتب النافعة في ذلك: "العاقبة في ذكر الموت والآخرة" للأشبيلي رحمه الله المتوفى (٥٨١ هـ)، و "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" للقرطبي رحمه الله المتوفى (٦٧١ هـ)، ومن المؤلفات المعاصرة؛ "القيامة الصغرى والقيامة الكبرى والجنة والنار" لعمر سليمان الأشقر رحمه الله المتوفى (١٤٣٣ هـ). وإليكم الآن الملامح التربوية:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أولاً: يُعرَّف يوم القيامة بأنه: "هو يوم البعث والقيام من القبور، وهو اليوم الآخر الذي لا يوم بعده، وهو يوم يقوم فيه الخلق بين يدي الحي القيوم؛ ليحاسبهم ويجازيهم بما عملوا إما بدار النعيم وإما بالعذاب الأليم"(١٠). وقد وصفه الله تعالى في كتابه بأنه يوم عظيم، لما فيه من أهوال تقصر العقول عن تصورها، قال سبحانه: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ، يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ**﴾(١١). وعلّق الأشبيلي رحمه الله على هذه الآية بقوله: "وما ظنك بيوم عبر الله تبارك وتعالى عن بعض ما يكون فيه بشيء عظيم، وماذا عسى أن يقول القائل فيه، وماذا عسى أن يصفه الواصف به؛ الأمر أعظم والخطب أكبر والهول أشنع"(١٢). كما أن شدة هول هذا اليوم قد عبّر عنها القرآن الكريم بتشبيه بليغ، إذ تشيب له رؤوس الولدان، كما قال عز وجل: ﴿**يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا**﴾(١٣). وقد قال

---

(١٠) موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، ١٤٢٣هـ.

(١١) الحج: ١-٢.

(١٢) العاقبة في ذكر الموت، ص ٢٤٩.

(١٣) المزمل:١٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الطبري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: "يعني يوم القيامة، وإنما تشيب الولدان من شدة هوله وكربه"(١٤). فدلّ ذلك على أن هوْل ذلك اليوم يفوق كل وصف ويتجاوز حدود التصور البشري.

ثانياً: من أعظم صور التعظيم ليوم القيامة أن يُقسم الله جلّ وعلا به، كما جاء في مطلع سورة سُمّيت باسمه، قال تعالى: ﴿**لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ**﴾(١٥). وقد تناول علماء التفسير هذا القسم بالبيان والتوضيح، مبرزين ما فيه من دلالات عظيمة على أهمية ذلك اليوم وخطورته، فقال ابن عاشور رحمه الله: "افتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده أمر مهم لتستشرف به نفس السامع، وكونُ القَسَم بيوم القيامة براعةُ استهلال لأن غرض السورة وصف بيوم القيامة"(١٦). ويضيف القاسمي رحمه الله: "أن المراد بالقسم تأكيد تعظيم المقسم به، إذ لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، وهذا التأكيد إنما يؤتى به رفعاً لتوهم كون هذه الأشياء غير مستحقة للتعظيم،

(١٤) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٩٤).

(١٥) القيامة: ١.

(١٦) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وللإقسام بها، فيزاح هذا الوهم بالتأكيد"[١٧]. أما المراغي رحمه الله فقد قال: "قسمه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيم شأنه، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه"[١٨]. وهو ما أكده أيضًا الشنقيطي رحمه الله بقوله: "يجمع المفسرون أن لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لأنها دالة على قدرته، وليس للمخلوق أن يحلف إلا بالله تعالى"[١٩]. فدل هذا الإقسام على عظم قدر هذا اليوم في ميزان الشريعة، وعلى وجوب التهيؤ والاستعداد له، إذ لا يقسم العظيم إلا بعظيم. @

ثالثًا: قد يتساءل القارئ الكريم عن الحكمة في تسمية هذا اليوم العظيم بـ "يوم القيامة"، ولا شك أن ما يقع فيه من أحداث جسام وأهوال عظام، له صلة وثيقة باسمه ودلالته. وقد بين ابن عثيمين رحمه الله أن يوم القيامة سمي بهذا الاسم لقيام أمور ثلاثة فيه، وهي:

---

(١٧) تفسير القاسمي (٣/ ٢٠٦).

(١٨) تفسير المراغي (٢٩/ ١٤٦).

(١٩) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٤٤٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، كما قال تعالى ﴿**لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾[٢٠].

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ**﴾[٢١].

الثالث: قيام العدل، لقوله تعالى: ﴿**وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾[٢٢]. وهكذا جاءت هذه التسمية معبّرة عن جوهر ذلك اليوم؛ فهو يومٌ يقوم فيه الخلق، ويقوم فيه الشهود، ويقوم فيه ميزان العدل الإلهي، فيتحقق تمام الحساب والجزاء.

رابعاً: نظراً لعظمة يوم القيامة وشدة أهواله، فقد ورد له في القرآن الكريم عدد كبير من الأسماء، اهتم العلماء بجمعها وبيان دلالاتها، إذ إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمّى وخطورته، وقد ذكر عمر سليمان الأشقر

---

(٢٠) المطففين: ٥-٦.

(٢١) غافر: ٥١.

(٢٢) الأنبياء: ٤٧. مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، باب ما جاء في منكري القدر، (١٠/ ١٠١٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

رحمه الله في كتابه القيامة الكبرى جملةً من أبرز أسمائه، منها: "يوم القيامة، اليوم الآخر، الساعة، يوم البعث، يوم الخروج، القارعة، يوم الفصل، يوم الدين، الصاخة، الطامة الكبرى، يوم الحسرة، الغاشية، يوم الخلود، يوم الحساب، الواقعة، يوم الوعيد، يوم الآزفة، يوم الجمع، الحاقة، يوم التلاق، يوم التناد، يوم التغابن. ثم أضاف رحمه الله: وقد أورد بعض العلماء أسماءً أخرى غير ما ذكرناه، وهذه الأسماء أخذوها بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصاً، فقد سموه بيوم الصدر أخذاً من قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا**﴾[٢٣]. ويوم الجدال أخذاً من قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا**﴾[٢٤]. وسموه بأسماء الأوصاف التي وصف الله بها ذلك اليوم، فقالوا من أسمائه: يوم عسير، ويوم عظيم، ويوم مشهود، ويوم عبوس قمطرير، ويوم عقيم"[٢٥]. وهذه الأسماء والأوصاف مجتمعة تُبرز ما لهذا اليوم من رهبة وهيبة، وتدعو العبد إلى التأمل والتفكر في مصيره، والاستعداد للوقوف بين يدي ربه جل جلاله.

---

(٢٣) الزلزلة: ٦.

(٢٤) النحل: ١١١.

(٢٥) القيامة الكبرى، ص ٢٩.

خامساً: إن تعدد أسماء يوم القيامة وتنوعها ليس أمرًا عرضيًا، بل له دلالات بليغة في لغة العرب، ولفتات تربوية ذات مغزى عميق. وقد أشار العلماء إلى هذا المعنى، فقال الأشبيلي رحمه الله: "واعلم أن العرب قد تُسمي الشيء بأسماء كثيرة وتجعل له ألقاباً عديدة، تعظيماً لشأنه وإكثاراً لأمره، وقد سمى الله تعالى يوم القيامة بأسماء كثير،ة ولعله من هذا وهو تبارك وتعالى أعلم"[(٢٦)]. وفي السياق نفسه يؤكد القرطبي رحمه الله هذا المعنى بقوله: "وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه، فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة"[(٢٧)].

سادساً: يتصف يوم القيامة بأهوال عظيمة ومشاهد مفزعة، تقْشَعِر لها الأبدان وتضطرب لها القلوب. وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى وجود سور من القرآن الكريم تصور ذلك اليوم تصويرًا حسيًّا، حتى كأن القارئ يشهده رأيَ العين، فقال: "من سَرَّه أن ينظرَ إلى يومِ القيامةِ كأنه رأيُ العين؛ فليقرأ: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ و﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ**﴾

(٢٦) العاقبة في ذكر الموت والآخرة، ص ٢٥١.

(٢٧) القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، (ص: ٥٤٤).

و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾"[٢٨]. وقد أوضح الفيومي رحمه الله سرّ اختصاص هذه السور الثلاث بوصف القيامة، فقال: "إنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها وتكوير شمسها وانكدار نجومها وسائر كواكبها إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم بعد نشر صحفهم وقراءة كتبهم وأخذها بأيمانهم وشمائلهم أو من وراء ظهورهم في موقعهم"[٢٩]. فهذا الوصف القرآني العجيب لا يهدف إلى مجرد التصوير، بل يحمل في طياته دعوة إلى اليقظة القلبية، والاستعداد الحقيقي لذلك اليوم العظيم الذي تتقلب فيه المصائر.

سابعاً: إن المتدبّر لأسماء يوم القيامة يجد فيها كثرة وتنوعًا وقوة في الألفاظ والدلالات، كما أن التأمل في بعض مشاهد ذلك اليوم المهول، كما ورد في سور التكوير والانفطار والانشقاق، يُورِث في قلب المؤمن رعبًا

---

(٢٨) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، الترغيب في قراءة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وما يذكر معها، رقم: ١٤٧٦.

(٢٩) الفتح القريب المجيب على الترغيب والترهيب، الترغيب في قراءة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وما يذكر معها، رقم: ٢٢٦٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وخشيةً عظيمة، لما تحمله من صور كونية مروعة واضطرابات كبرى في نظام العالم، ويبدو أن من الحكم البالغة في ذلك، بثّ الرهبة والتحذير في النفوس، حتى يكون الإنسان في حالة دائمة من الاستعداد لذلك اليوم، ملتزمًا بتقوى الله ظاهرًا وباطنًا، ممتثلًا أوامره، مجتنبًا نواهيه، وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من العلماء، منهم الشنقيطي رحمه الله، حيث قال: "إن يوم القيامة يختل فيه نظام العالم، والمراد الترغيب والترهيب، ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة، فيطيعوا الله ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضًا"(٣٠).

كما يؤكد محمد طنطاوي رحمه الله في تفسيره للآية نفسها أن المقصود بها: "ترغيب الصالحين في الازدياد من العمل الصالح، لترفع منزلتهم يوم القيامة، وترهيب الفاسقين من سوء المصير الذي ينتظرهم، إذا ما استمروا في فسقهم وعصيانهم"(٣١). ويعضد هذا المعنى كذلك ابن عثيمين رحمه الله بقوله: "إن الحكمة من تعدد أوصافها، وذكرها حتى يكون ذلك أبلغ في الإيمان بها، وأقوم للاستعداد لها"(٣٢).

---

(٣٠) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٥١٠).

(٣١) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٤/ ١٥٩).

(٣٢) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، سؤال رقم: ١٨٨، (٢/ ٦٢)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثامناً: تكررت في القرآن الكريم ثلاث آيات تؤكد أن استحضار عِظم يوم القيامة وهَوْله يُعدُّ من أقوى الزواجر التي تردع المؤمن عن الانحراف عن طاعة الله تعالى، وتثبّته على طريق الاستقامة، وقد جاءت هذه الآيات في ثلاث سور، بلفظ واحد: قال الله تعالى: ﴿**إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ**﴾(٣٣). وقد قال الطبري رحمه الله في تأويل هذه الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين العادلين بالله، الذين يدعونك إلى عبادة أوثانهم: إنّ ربي نهاني عن عبادة شيء سواه ﴿**إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي**﴾، فعبدتها ﴿**عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ**﴾، يعني: عذاب يوم القيامة، ووصفه تعالى بـ"العِظم" لعظم هَوْله، وفظاعة شأنه"(٣٤). كما أشار الشوكاني رحمه الله إلى المعنى ذاته، فقال: "أي: إن عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهيه، والخوف: توقع المكروه، وقيل: هو هنا بمعنى العلم، أي إني أعلم إن عصيت ربي أن لي عذاباً عظيماً"(٣٥).

---

(٣٣) الأنعام: ١٥، يونس: ١٥، الزمر: ١٣.

(٣٤) تفسير الطبري (١١/ ٢٨٥).

(٣٥) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١١٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تاسعاً: إن الحُكْمَ بالخفض والرفع يوم القيامة هو قضاء إلهي بحت، لا يشوبه تدخل أو تأثير بشري، فهو سبحانه صاحب السلطان المطلق، المتفرّد بالحكم والتدبير في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿**مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ**﴾(١). قال قال القاسمي رحمه الله: "أي: إن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها، لا حقيقة ولا ادعاء، وإن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً يرجو رحمته، ويخشى عذابه"(٢). وبناءً على هذا المعنى، يقرر القرطبي رحمه الله أن: "الخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده، فرفع أولياءه في أعلى الدرجات، وخفض أعداءه في أسفل الدركات"(٣). ويؤكد ذلك أيضًا ابن عثيمين رحمه الله في شرحه لقوله تعالى: ﴿**يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ**﴾(٤)، فيقول: **دَرَجَٰتٖ**﴾(٤)، فيقول: "فأهل العلم والإيمان هم الذين لهم الرفعة في الدنيا والآخرة، ومن سواهم فإنهم موضوعون بحسب بعدهم عن الإيمان والعلم، وتخفض أهل الجهل والعصيان. وكم من إنسان في الدنيا رفيع الجاه، معظم

---

(١) الفاتحة: ٤.

(٢) تفسير القاسمي (١/ ٢٣٨).

(٣) تفسير القرطبي (١٧/ ١٩٦).

(٤) المجادلة: ١١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عند الناس يكون يوم القيامة من أحقر عباد الله، والجبارون المتكبرون يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، مع أنهم في الدنيا متبخترون مستكبرون عالون على عباد الله، لكنهم يوم القيامة موضوعون مهينون قد أخزاهم الله عز وجل"(١).

عاشراً: إن مشهد الخفض والرفع في الدنيا والآخرة يُرسّخ في قلب المؤمن حقيقة التوحيد، ويُعزّز يقينه بأن الله وحده هو المدبر لأمر عباده في جميع أحوالهم، في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة، بقدرة كاملة وعلم شامل، لا يُدانيه فيها أحد، ولا يشاركه فيها شريك، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ**﴾(٢). وقد بين ابن كثير رحمه الله معنى الآية بقوله: "أي: يدبر أمر الخلائق ﴿**لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ**﴾(٣)، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعمران والقفار، ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ**

(١) تفسير العثيمين، الحجرات-الحديد.

(٢) يونس: ٣.

(٣) سبأ: ٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[١]، **﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾**[٢]"[٣]. والخلاصة: أن على المؤمن أن يُوقن بأن كل ما يقع من خفض أو رفع، أو رزق أو منع، إنما هو بتقدير الله وتدبيره، وأن لا يلتفت إلى الأسباب دون ربّ الأسباب، وهذا ما يعمّق التعلق بالله وحده، ويجعل العبد في حالة دائمة من التسليم والرضا بحكمه وعدله سبحانه.

الحادي عشر: إن من أعظم أسباب الرفعة لزوم طاعة الله تعالى، ومن أقوى أسباب الخسران اقتراف المعاصي، وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من المفسرين، منهم الخازن رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى: **﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾**: "قيل: تخفض أقواماً بالمعصية وترفع أقواماً بالطاعة"[٤]. وأكد ابن عادل رحمه الله المعنى نفسه بقوله: "أي: أنَّها تخفض أهل المعاصي، وترفع أهل الطَّاعة"[٥]. كما قال الرازي رحمه الله: "الخفض: معناه في اللغة

---

(١) هود: ٦.

(٢) الأنعام: ٥٩.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٦).

(٤) تفسير الخازن (٤/ ٢٣٤).

(٥) اللباب في علوم الكتاب (١١/ ٤٨٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نقيض الرفع، ومنه قوله تعالى في صفة القيامة: ﴿**خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ**﴾ أي أنها تخفض أهل المعاصي، وترفع أهل الطاعات"[١]. وهذا المعنى يتكرر في القرآن الكريم في مواضع عدة، تؤكد أن الطاعة طريق الأمن والنجاة، بينما المعصية طريق الهلاك والعذاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿**وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[٣].

ومن هنا تتأكد حقيقة مهمة يجب إدراكها، وهي: أن من أراد الرفعة في الدار الآخرة، فعليه بلزوم طاعة الله تعالى، وأن يتجنب المعاصي التي هي سبب الخزي والخذلان، فإن الجزاء من جنس العمل، والله عدل لا يظلم أحدًا.

---

(١) تفسير الرازي (١٩/ ١٦١).

(٢) النمل : ٨٩.

(٣) النمل : ٩٠.

(١٨)

قلب المؤمن يُشرق بالأمل والخير دائماً

﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾

قلب المؤمن يُشرق بالأمل والخير دائماً

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾(١).

تمهيد:

القرآن الكريم قريب جداً من الإنسان يزكي نفسه، ويهذب سلوكه ظاهراً وباطناً، ويراعي مشاعره وينظمها في إطار من التوسط والاعتدال، وفي أجواء الحياة القاتمة وابتلاءاتها تعتري الإنسان أحياناً مشاعر من الشدة والكرب، فيشعر بشيء من الضيق واليأس، وكأن الدنيا ضاقت عليه بما رحبت، ولكن المؤمن الممتلئ قلبه بالإيمان عندما يقرأ، أو يسمع كلام الله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ يشرق في قلبه شعاع الأمل ونور الثقة بالله تعالى فيعينه ذلك على تجاوز المحن مهما كان حجمها ونتائجها، فيتحلى بالصبر الجميل ابتغاء الأجر والعوض من الله تعالى، فيصبح فرحاً مسروراً بعد أن كان بائساً مكروباً.

(١) الطلاق: ١.

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

العبارة القرآنية موضوع المقال: ﴿**لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا**﴾ جاءت خاتمة الآية التي تناولت توجيهات عن الطلاق المشروع، من أجل بقاء فرصة لعودة الزوجين خلال العدة، وتحمل أملاً بأن الله تعالى قد يُحدث تصالحاً بين الزوجين، أو خيراً لم يكن متوقعاً بعد الطلاق، وإليكم أقوال بعض المفسرين.

قال ابن كثير رحمه الله: "وقوله تعالى: ﴿**لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا**﴾، أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل"(٢).

قال المراغي رحمه الله: "﴿**لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا**﴾، أي: لا تعلم أيها المرء أن الله يقلب القلوب، فيجعل في قلبك محبة لها، فتندم على فراقها، وتود الرجعة إليها، فلا يتسنى لك ذلك؛ لأن الفرصة تكون قد ضاعت، وما جرّ ذلك عليك إلا تعدي حدود الله. والخلاصة: إن

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من يتعدّ حدود الله فقد أساء إلى نفسه، فإنه لا يدري عاقبة ما هو فاعل، فلعل الله يحدث في قلبه بعد ذلك الذي فعل من التعدي أمراً يدعو إلى عكس ما فعل، فيبدّل البغض محبة، والإعراض إقبالاً، ولا يتسنى له تلافي ذلك برجعة، أو استئناف نكاح فتضيع الفرصة ويندم، ولات ساعة مندم"[٣].

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: العبارة القرآنية موضوع المقال ﴿**لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا**﴾ تُقرر قاعدة قرآنية عامة يحتاجها الجميع، لما جُبلت عليه الحياة من كدر ونكد وشدة وضيق، قال تعالى: ﴿**لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ**﴾[٤]، فنجدها تفتح أبواب الأمل على مصاريعه، بأن هناك فجراً جديداً مشرقاً بكل خير، فمهما عصفت بنا الحياة، يبقى الأمل بالله تعالى متجدداً في قُلوبنا، فالله جل جلاله عظيم قادر يجعل بعد الضيق فرجاً وبعد الشدة مخرجاً من حيث لا يُحتسب، وصدق الله تعالى: ﴿**سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ**

(٣) تفسير المراغي (٢٨/ ١٣٧).

(٤) البلد: ٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿يُسۡرٗا﴾[٥]. قال السعدي رحمه الله: "بشارة عظيمة أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جُحر ضَبّ لدخل عليه اليسر فأخرجه"[٦].

ثانياً: أعظم معين لتجاوز كروب الحياة وشدائدها العودة الصادقة إلى الله تعالى والقرب منه. وفي الصميم قول ابن عثيمين رحمه الله: "يجب على المرء إذا اشتدت به الأمور أن يرجع إلى الله عز وجل"[٧]. ولا يتأتى ذلك إلا بالتقوى، فهي الزاد الحقيقي والمنبع الأساس للخير، والسبيل الأسمى للفرج بعد الشدة، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا**﴾[٨]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة"[٩]. زد على ذلك التذلل بين يدي الله تعالى بالدعاء في أوقات الاستجابة، فهو سلاح المؤمن؛ قال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ**﴾[١٠]. قال ابن باز

---

(٥) الطلاق: ٧.

(٦) تفسير السعدي (ص: ٩٢٩).

(٧) تفسير الفاتحة والبقرة، (٣/ ٢٣١).

(٨) الطلاق: ٢.

(٩) الشوكاني، فتح القدير، سورة الطلاق، (٥/ ٢٩١).

(١٠) غافر: ٦٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رحمه الله: "المؤمن في حاجةٍ إلى إكثاره من الدّعاء، وإذا تحرَّى أوقات الإجابة كان ذلك أفضل، والله يُحب من عباده أن يدعوه ويضرعوا إليه جلَّ وعلا، فينبغي الإكثار من ذلك، مع حُسن الظن بالله، ورجاء الإجابة".

ثالثاً: العلاقات البشرية لا يُفترض فيها الكمال المطلق، فمن طبيعتها الخلاف والمشاحنة، وقد يكون لأتفه الأسباب، ومن أعظم وأخطر ما يسعى إليه الشيطان وأعوانه من ذريته، ومن شياطين الإنس؛ نشر العداوة والبغضاء والكراهية، والتناحر بين الناس حتى تَعُم الفوضى وتشيع الفاحشة؛ بل من أولوياته تفكيك الأسرة، وإيجاد المنازعات بين الزوجين والأقارب والأرحام بمختلف درجاتهم، ويضع الحوافز المعنوية لأعوانه لمن يصل إلى درجة التفريق بين الرجل وأهله، فقد ثبت في الحديث الشريف، قال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ إبليسَ يضعُ عرشَه على الماء، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقولُ: فعلتُ كذا وكذا، فيقولُ ما صنعتَ شيئًا، ويجيءُ أحدُهم فيقولُ: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينَه وبين أهلِه، فيُدْنيه منه، ويقولُ: نعم أنتَ!"(١١).

(١١) صحيح مسلم، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، حديث رقم: ٢٨١٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رابعاً: العبارة القرآنية موضوع المقال دعوة إلى محاسن الأخلاق؛ ومنها: الصبر الجميل، عدم الاستعجال في اتخاذ القرارات المصيرية، التوازن بين المصالح والمفاسد، والإيجابيات والسلبيات، فالصبر رغم مرارته لكن عواقبه حميدة، والاستعجال مذموم وعواقبه وخيمة، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**﴾(١). قال السعدي رحمه الله: "الغني فتنة للفقير والفقير فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار"(٢). وعن أهمية الحلم وعدم الاستعجال، الاستعجال، قال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لأشجِّ عبد القيس رض الله عنه: "إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله: الحِلْم، والأناة"(٣). قال ابن عثيمين رحمه الله: " الحِلم: عندما يثار الإنسان ويُجنى عليه ويُعْتدى عليه يَحْلَم، يتأثر لكن يكون حليماً لا يتعجل بالعقوبة، حتى إذا صارت العقوبة خيراً من العفو أخذ بالعقوبة، الأناة: التأني في الأمور وعدم التسرع، وما أكثر ما يهلك

(١) الفرقان: ٢٠.

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٨٠).

(٣) صحيح مسلم، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين، حديث رقم: ١٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإنسان ويزل بسبب التعجل في الأمور، وسواء في نقل الأخبار، أو في الحكم على ما سمع، أو في غير ذلك"(١).

خامساً: الأسرة نواة المجتمع وأساس تكوينها، والعبارة القرآنية موضوع المقال: ﴿**لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا**﴾ جاءت بداية سورة الطلاق، وخاتمة آيتها الأولى، وتناولت توجيهات عن الطلاق المشروع، من أجل بقاء فرصة لعودة الزوجين خلال العدة، وتحملُ أملاً بأن الله تعالى قد يُحدث تصالحاً بين الزوجين، ولعل من حكمة ذلك المحافظة على العلاقة الزوجية واستمرارها، والترغيب في الصلح بين الزوجين عند الخلاف طاعة لله تعالى؛ لما في ذلك من الخير العظيم، ولما يترتب على الخلاف والانفصال من فساد عريض على الفرد والمجتمع، وصدق الله العظيم: ﴿**وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾(٢). وهذه الآية المباركة من سورة النساء تتضمن الترغيب في الصلح بين الزوجين عند الخلاف طاعة لله تعالى؛ لما في ذلك من الخير العظيم، ولما يترتب على الخلاف والانفصال من فساد عريض على الفرد والمجتمع. قال

---

(١) شرح رياض الصالحين، (٣/ ٥٧٧).

(٢) النساء: ١٢٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

البقاعي رحمه الله: "من أعظم مقاصد سورة النساء التواصل والتقارب والإحسان لا سيما لذوي الأرحام، والعدل في جميع الأقوال والأفعال"[١].

سادساً: للعلاقة الزوجية قدسية عظيمة، فهي ميثاق غليظ، عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿**وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا**﴾[٢]. قال ابن كثير رحمه الله عن جمع من السلف، أي: "أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله"[٣]. ولذلك فهي محاطة بسياج منيع من الحواجز حفاظاً عليها من التفرق؛ لما يترتب عليه من عظيم الفساد على الفرد والمجتمع والأولاد، فعلى الزوجين تقوى الله تعالى في علاقتهما الزوجية، وإعطاء مساحة أكبر من الصبر والتسامح وتهوين النفس والتغافل ابتغاء وجه الله تعالى، والحذر ثم الحذر من التعالي ومحاولة الانتصار للنفس، وأؤكد أن هناك علاقة قوية بين تماسك الأسرة المسلمة، وبين التزامها بشرع الله تعالى أمراً ونهياً، فكلما كان تأسيس الأسرة المسلمة على التوحيد والإيمان

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٢٢/ ٣٤٣).

(٢) النساء: ٢١.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والتقوى كانت أكثر استقراراً وتماسكاً وتأثيراً إيجابياً في تطوير أفرادها والارتقاء بهم، وانعكس ذلك بشكل طبيعي على المجتمع والأمة بأسرها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١٩)

السعيد من يجعل عمله كله في مرضاة اللّه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

السعيد من يجعل عمله كله في مرضاة الله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[١].

تمهيد:

ما أسعد الإنسان الذي يجعل عمله كله في مرضاة الله تعالى وابتغاء وجه عز وجل، ولا يتأتى ذلك إلا بتوفيق من الله جل جلاله أولاً، ثم بالحرص والاجتهاد على تقوى الله تعالى بطاعته فيما أمر وترك ما نهى عنه. ولا شك أن عاقبة ذلك حُسْنَى، فيجد راحة وسعادة في الدنيا قبل الآخرة، وصدق الله العظيم: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٢].

قال ابن كثير رحمه الله: "هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله

(١) الانشقاق: ٦.

(٢) النحل: ٩٧.

حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت"(٣).

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: يأيُّها الإنسان إنك عامل إلى ربك عملاً فملاقيه به، خيرًا كان عملك ذلك أو شرًا، يقول: فليكن عملك مما يُنجيك من سُخْطه، ويوجب لك رضاه، ولا يكن مما يُسخطه عليك فتهلك"(٤).

وقال ابن عثيمين رحمه الله: قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ الكادح: هو الساعي بجد ونوع مشقة، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني أنك تكدح كدحاً يوصلك إلى ربك، يعني أن منتهى كدحك مهما كنت ينتهي إلى الله، لأننا سنموت، وإذا متنا رجعنا إلى الله عز وجل، فمهما عملت فإن المنتهى هو الله عز وجل ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾(٥)، ولهذا قال: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ حتى العاصي كادح

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٦).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/ ٣١٢).

(٥) النجم: ٤٢.

كادحًا غايته الله عز وجل ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[٦]. لكن الفرق بين المطيع والعاصي: أن المطيع يعمل عملاً يرضاه الله، ويصل به إلى مرضاة الله يوم القيامة، والعاصي يعمل عملاً يغضب الله، لكن مع ذلك ينتهي إلى الله عز وجل. إذاً قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعم كل إنسان مؤمن وكافر ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الفاء يقول النحويون: إنها تدل على الترتيب والتعقيب، يعني، فأنت ملاقيه عن قرب ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ﴾[٧]، وكل آت قريب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[٨].

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: إن الغاية العظمى التي خُلق الإنسان من أجلها؛ هي عبادة الله تعالى؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٩]. وعلى هذا، ينبغي أن تكون جميع أفعاله وأقواله وسائر شؤون حياته متجهة نحو تحقيق هذه الغاية السامية، مستلهمًا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي

(٦) الغاشية: ٢٥، ٢٦.

(٧) الأنعام: ١٣٤.

(٨) الشورى: ١٧.

(٩) الذاريات: ٥٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١٠) ، ومن رزقه الله تعالى بصيرة بالغاية الكبرى في حياته، واستشعر يقينًا لقاء ربه تعالى، وأدرك أن الحياة مهما طالت ما هي إلا فرصة للعمل، كان أقرب بعون الله وتوفيقه إلى سلوك الطريق المستقيم، فإن زلّت قدمه، أو قَصَّر بسبب ضعفه البشري، لم يلبث أن يعود مستغفرًا، نادمًا، سائلًا الله العفو والمغفرة. وجميل قول ابن عثيمين رحمه الله: "فاستعد يا أخي لهذه الملاقاة لأنك سوف تلاقي ربك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ عز وجل لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ"(١١). وكم من ذنوب سترها الله عز وجل، كم من ذنوب اقترفناها لم يعلم بها أحد ولكن الله تعالى علم بها، فموقفنا من هذه الذنوب أن نستغفر الله عز وجل، وأن نكثر من الأعمال الصالحة المكفرة للسيئات حتى نلقى الله عز وجل ونحن على ما يرضيه سبحانه وتعالى"(١٢).

---

(١٠) الأنعام: ١٦٢.

(١١) صحيح البخاري، باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، حديث رقم: ٧٠٧٤.

(١٢) تفسير العثيمين، جزء عم، ص ١٨٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثانيًا: تُعزز الآية موضوع المقال قيمة الكدح، وهو: السعي الجاد والعمل الدؤوب، مما يبرز أن الحياة ليست طريقًا مفروشًا بالورود، بل تحتاج إلى المثابرة والصبر والإصرار. وقد صدق أحمد شوقي رحمه الله في التعبير عن هذه الحقيقة بقوله:

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً ... إن الحياة عقيدة وجهاد

لكن الأهم من ذلك أن يكون هذا الكدح وفق شرع الله تعالى وابتغاء مرضاته، فمن اجتهد في سبيل الله، كانت نهايته بعونه وتوفيقه في غاية النجاح والفلاح، كما قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**﴾(١٣). قال البغوي رحمه الله: "وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم وبالثواب والمغفرة في عقباهم"(١٤).

ثالثًا: من أعظم الفقه في الدين أن يحقق الإنسان التوازن في كدحه بين حاجات الدنيا ومطالب الآخرة، بحيث لا يطغى أحد الجانبين على الآخر،

(١٣) العنكبوت: ٦٩.

(١٤) تفسير البغوي (٦/ ٢٥٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا. وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾[١٥]. قال الطبري رحمه الله: "التمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة، بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا. وقوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يقول: ولا تترك نصيبك وحظك من الدنيا، أن تأخذ فيها بنصيبك من الآخرة، فتعمل فيه بما ينجيك غدا من عقاب الله"[١٦]. وكما أكد القرآن الكريم على هذا التوازن، جاءت السنة النبوية المطهرة معززة له، فقد قال سلمان الفارسي لأبي الدرداء رضي الله عنهما: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "صَدَقَ سَلْمَانُ"[١٧].

رابعاً: ورد ذكر الإنسان في القرآن الكريم مراراً، ولا شك أن ذلك يحمل دلالات تربوية بالغة الأهمية، تعكس طبيعته، وخصائصه، ومسؤولياته،

(١٥) القصص:٧٧.

(١٦) تفسير الطبري (١٩/ ٥٢٤).

(١٧) صحيح البخاري، باب: صنع الطعام والتكلف للضيف، حديث رقم: ٢٢٧٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعلاقته بالله تعالى وبالكون، ومن أبرز هذه الدلالات: التكريم والتفضيل على كثير من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾(١٨). ويشمل هذا التكريم؛ عبادة الله تعالى، والعقل، والقدرة على الاختيار، والخلافة في الأرض، ومن الدلالات أيضاً: الابتلاء؛ قال تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾(١٩). وكذلك: المسؤولية؛ حيث قال سبحانه: ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾(٢٠). وأيضاً: الضعف؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا**﴾(٢١). وكذلك: التسرع؛ في قوله عز وجل: ﴿**وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا**﴾(٢٢). وأيضاً الجحود؛ حيث قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ**﴾(٢٣). وهذه مجرد إشارات يسيرة إلى بعض ما ورد عن الإنسان في القرآن الكريم، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

---

(١٨) الإسراء: ٧٠.

(١٩) الأنبياء: ٣٥.

(٢٠) الدخان: ١٢.

(٢١) النساء: ٢٨.

(٢٢) الإسراء: ١١.

(٢٣) الزخرف: ١٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خامساً: من أعظم صور الخسارة أن يكدح الإنسان في الدنيا، ويبذل جهده وطاقته، وقد يحقق بعض الفوائد الدنيوية، ثم تذهب أعماله جميعها يوم القيامة هباءً منثورًا، والسبب والعياذ بالله قد يكون الشرك بالله، كما قال تعالى، ﴿**وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا**﴾(٢٤). أو قد يكون بسبب قيامه بأعمال لا توافق شرع الله، ظانًّا أنه على صواب، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا. ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾(٢٥)، وقال عز وجل: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ**﴾(٢٦). لذلك، من الواجب على الإنسان أن يراجع أعماله أولًا بأول، وأن يحاسب نفسه باستمرار، حتى لا يضيع عمره وهو في غفلة، ثم يلقى ربه عز وجل بغير زاد تقي يشفع له يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من لقى الله بقلب سليم.

---

(٢٤) الفرقان: ٢٣.

(٢٥) الكهف: ١٠٣-١٠٤.

(٢٦) فاطر: ٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سادساً: من أهم الوسائل المعينة للإنسان للسير في الحياة وسلوك الطريق الصراط المستقيم؛ الحرص على طلب الهداية من الهادي سبحانه وتعالى؛ لأن الهداية منه جل جلاله: ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ**﴾(٢٧). قال الطبري رحمه الله: "أي: وإن الله لمرشد الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحق القاصد، والحق الواضح"(٢٨). ومعنى اسم الله الهادي: قال السعدي رحمه الله: " أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه منقادة لأمره"(٢٩).

سابعاً: ما تضمنته الفقرة: **"ثالثاً"** يؤكد تأكيداً جازماً على أهمية المحافظة على الصلوات الخمس، فهي أصل الهداية ومنبع الفلاح، فالمؤذن في أوقاتها ينادي قائلاً: **"حي على الصلاة .. حي على الفلاح"**، فالإنسان في الصلاة المكتوبة يقف بين يدي مولاه جل جلاله خمس مرات يومياً من غير النوافل، وهو يقرأ الفاتحة، أعظم سورة في القرآن الكريم، - وهي ركن من أركانها -،

---

(٢٧) الحج: ٥٤.

(٢٨) تفسير الطبري (١٨/ ٦٧٠).

(٢٩) خاتمة التفسير: أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته، ص ٩٤٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقول: بخشوع وتدبر: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[٣٠]. قال السعدي رحمه الله: " أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا، فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد"[٣١].

ثامناً: الهدايات والأنوار التي يكتسبها الإنسان من الصلاة لا حد لها، وصدق صلى الله عليه وسلم إذ قال: "وَالصَّلَاةُ نُورٌ"[٣٢]. قال ابن عثيمين رحمه الله: "نور للعبد في قلبه، وفي وجهه، وفي قبره، وفي حشره، ولهذا تجد أكثر الناس نوراً في الوجوه أكثرهم صلاة، وأخشعهم فيها لله عز وجل، وكذلك تكون نوراً للإنسان في قلبه؛ تفتح عليه باب المعرفة لله- عز وجل-، وباب المعرفة في أحكام الله، وأفعاله، وأسمائه، وصفاته، وهي نور في قبر الإنسان؛ لأن الصلاة هي عمود الإسلام، إذا قام العمود قام البناء، وإذا لم

---

(٣٠) الفاتحة: ٦.

(٣١) تفسير السعدي (ص: ٣٩).

(٣٢) صحيح مسلم، باب: فضل الوضوء، حديث رقم: ٢٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقم العمود فلا بناء، كذلك نور في حشرة يوم القيامة؛ فهي نور للإنسان في جميع أحواله، وهذا يقتضي أن يحافظ الإنسان عليها، وأن يحرص عليها، وأن يكثر منها حتى يكثر نوره وعلمه وإيمانه"(٣٣).

تاسعاً: يجب على الإنسان الحرص التام والعناية البالغة بتعلم ما يعود عليه بالخير والصلاح في أمر دينه ودنياه. وقد ذمَّ القرآن الكريم حال الذين **﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾**(٣٤). قال ابن كثير رحمه الله: "أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حُذَّاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عمَّا ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل، لا ذهن له ولا فكرة"(٣٥). وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه: "مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ"(٣٦). قال النووي رحمه الله: "فيه فضيلة العلم، والتفقُّه في

---

(٣٣) شرح رياض الصالحين، باب: الصبر (١/ ١٧٢).

(٣٤) الروم: ٧.

(٣٥) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٤).

(٣٦) صحيح البخاري، باب: العلم قبل القول والعمل، حديث رقم: ٧١، صحيح مسلم، باب: النهي عن المسألة، حديث رقم: ١٠٣٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الدين، والحث عليه، وسببه: أنه قائد إلى تقوى الله تعالى"[٣٧]. وما أجمل قول الله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾[٣٨].

(٣٧) النووي، شرح مسلم، (٧/ ١٢٨).

(٣٨) الزمر: ٩.

(٢٠)

لا يعاقب أحداً إلا بذنب

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يعاقب أحداً إلا بذنب

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[٣٩].

تمهيد:

إن الله تعالى أرحم الراحمين، ورحمته وسعت كل شيء، والله جل جلاله له الكمال المطلق، والعدل المطلق، ولا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، قال تعالى: ﴿**مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[٤٠]. قال ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى: ﴿**مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِ**﴾، أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿**وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا**﴾، أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾، أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه"[٤١].

---

(٣٩) البروج: ١٢.

(٤٠) فصلت: ٤٦.

(٤١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٦٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال ابن عثيمين رحمه الله: "قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿بَطْشَ﴾، يعني: أخذه بالعقاب. والشديد القوي؛ كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٤٢). فبطش الله؛ يعني: انتقامه وأخذه شديد عظيم، ولكنه لمن يستحق ذلك، أما من لا يستحق ذلك؛ فإن رحمة الله تعالى أوسع، ما أكثر ما يعفو الله عن الذنوب، وما أكثر ما يستر من العيوب، ما أكثر ما يدفع من النقم، وما أكثر ما يجري من النعم، لكن إذا أخذ الظالم لم يفلته؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: " إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(٤٣). وعلى هذا فنقول: ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾ أي: فيمن يستحق البطش، أما من لا يستحقه فإن الله تعالى يعامله بالرحمة، ويعامله بالكرم، ويعامله بالجود، ورحمة الله تعالى سبقت غضبه".

---

(٤٢) المائدة: ٩٨.

(٤٣) هود: ١٠٢. صحيح البخاري، باب: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، رقم: ٤٦٨٦، صحيح مسلم، باب: تحريم الظلم، رقم: ٢٥٨٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: إن رحمة الله تعالى لا حد لها، ولا وصف، وقد وسعت كل شيء، قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٤٤]. قال ابن كثير رحمه الله: "وقوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا**﴾[٤٥]"[٤٦]. وفي الحديث؛ يُخبِر النبي صلى الله عليه وسلَّم: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مكتوب عنده فوق العرش"[٤٧]. قال النووي رحمه الله: "والمراد بالسبق والغلبة هنا كثرة الرحمة وشمولها؛ كما يقال غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا منه"[٤٨].

---

(٤٤) الأعراف: ١٥٦.

(٤٥) غافر: ٧.

(٤٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٣).

(٤٧) صحيح البخاري، باب: قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ٢٢﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، حديث رقم: ٧١١٥، صحيح مسلم، باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، حديث رقم: ٢٧٥١.

(٤٨) شرح مسلم، باب: سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه، حديث رقم: ٢٧٥١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثانياً: من فضل الله تعالى وكرمه وإحسانه وعموم رحمته أنه رحيم بعباده كلهم مؤمنهم وكافرهم. وحكى القرآن الكريم إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾(٤٩). لكن من كمال عدله سبحانه أن جعل للمؤمنين رحمة خاصة تميزهم عن غيرهم لقاء توحيدهم وإيمانهم بالله تعالى. قال ابن عثيمين رحمه الله: "الرحمة العامة تشمل جميع المخلوقات، حتى الكفار، لأن الله قرن الرحمة هذه مع العلم، فكل ما بلغه علم الله، وعلم الله بالغ لكل شيء، فقد بلغته رحمته، فكما يعلم الكافر، يرحم الكافر أيضاً، لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن، فالذي يرزق الكافر هو الله الذي يرزقه بالطعام، والشراب، واللباس، والمسكن، والمنكح، وغير ذلك، أما المؤمنون، فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم، لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية، ولهذا تجد المؤمن أحسن حالاً من الكافر، حتى في أمور الدنيا"(٥٠).

ثالثاً: الإنسان بفطرته يميل إلى حب من يُظهر له الإحسان والرحمة، وفي الواقع نلمس الحب العظيم الذي يكنه الأولاد لأمهم لقاء عطفها

---

(٤٩) غافر: ٧.

(٥٠) شرح العقيدة الواسطية، ص ٢٤٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وشفقتها ورحمتها بهم. والمتأمل لأسماء الله الحسنى يلحظ أنها تقوم على مدار الرحمة؛ والرأفة، والمغفرة، والكرم، والحلم. قال المعلمي رحمه الله: "ومن الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ تنبيهُ المتدبِّر على أنَّ المدار على الرحمة، وأنَّ الغضب كالعارض، ولذلك اشتَقَّ اللهُ لنفسه أسماءً من الرحمة والرأفة ونحوها، ولم يشتقَّ لنفسه اسمًا من الغضب، وفي الصحيحين في الحديث القدسي: "إنَّ رحمتي سبقت غضبي""[٥١].

رابعاً: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مثال واقعي للدعوة إلى الرحمة والرفق في شؤون الحياة كلها. ومن توجيهاته العامة صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، وَيُعْطِي على الرِّفق ما لا يُعطي عَلَى العُنفِ، وَما لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"[٥٢] ، وقال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الرِّفقَ لا يَكُونُ فِي شيءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ"[٥٣]. قال ابن باز رحمه الله : "الإنسان في الدعوة إلى الله، وفي الأمر بالمعروف، وفي النَّهي عن المنكر، وفي

(٥١) تفسير سورة الفاتحة، ص ١٢٦.

(٥٢) صحيح البخاري، باب: إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصرح، رقم: ٦٥٢٨، صحيح مسلم، باب: باب فضل الرفق، رقم: ٢٥٩٣.

(٥٣) صحيح مسلم، باب: باب فضل الرفق، رقم: ٢٥٩٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ملاحظة أحوال أهل بيته، ومع جيرانه؛ كل ذلك بالرفق، في دعوته، وأمره، ونهيه، ونصيحته، وغير ذلك، عليه أن يتحرَّى الرفق في الأمر كله؛ لأنَّ هذا أجدى وأنفع من الشدة والغلظة".

خامساً: ولأهمية الرحمة بالأولاد والرفق بهم، هناك أمثلة واقعية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم تُجسِّدُ معنى الرحمة والرفق بهم، ومنها: "جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إلى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَما نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أوَ أَمْلِكُ لكَ أنْ نَزَعَ اللَّهُ مِن قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ"(٥٤). وفي حديث آخر: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَبَّلَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسٌ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي لَعَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا قَطُّ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: "إِنَّ مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ"(٥٥). فالواجب على الوالدين، والمعلمين، والدعاة خاصة، والناس عامة أن يتحلوا بالرحمة والرفق بمن حولهم، ويبتعدوا عن الغلظة والقسوة، في أقوالهم وأفعالهم. قال ابن باز رحمه الله: "ينبغي للمؤمن أن يكون رحيمًا، رقيقًا، يحب الخير للمسلمين،

---

(٥٤) صحيح البخاري: باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: ٥٩٩٨.

(٥٥) صحيح البخاري، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: ٥٦٥١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويرحمهم، ويعطف عليهم، ولا سيَّما مع الصبيان والضعفاء، هكذا ينبغي للمؤمن، فلا بد أن يكون رفيقًا، رحيمًا، لأولاده وللفقراء والأقارب، ولا يجوز أن يكون فظًّا غليظًا".

سادساً: يجب أن يستقر في قلب المسلم، ويعلم علم اليقين أن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، قال تعالى: ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ**﴾[٥٦]، وأن ما يحصل لهم من بطش وشدة من الله تعالى هو بما قدمته أيديهم، قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ**﴾[٥٧]. قال الطبري رحمه الله: "إن الله عَدْل لا يجورُ فيعاقب عبدًا له بغير استحقاق منه العقوبةَ، ولكنه يجازي كل نفس بما كسبت، ويوفّي كل عامل جزاء ما عمل"[٥٨].

سابعاً: إن الشدة في بعض الأحيان من المربي سواء من الوالدين، أو المعلمين المخلصين لا تعني ضعف الرحمة لديه، أو عدمها، بل هي من الحكمة وعين الرحمة، ولله المثل الأعلى؛ وجميل قول المعلمي رحمه الله: "وإن

---

(٥٦) آل عمران: ١١٧.

(٥٧) الأعراف: ١٨٢.

(٥٨) تفسير الطبري (٧/ ٤٤٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان غضبُ الله على من غضِبَ عليه هو من لوازم الرحمة العامَّة، وهو مقتضٍ لحمد الله تعالى عليه؛ لأنه مع صرف النظر عن الرحمة العامَّة مقتضى الحكمة البالغة"(٥٩). ويحضرني قول الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يكُ راحماً ... فلْيَقْسُ أحياناً على من يرحمُ

ثامناً: يحتاج الإنسان في تربيته، وتهذيبه، وتزكيته إلى أسلوبي الثواب والعقاب، أو بمعنى آخر؛ الترهيب والترغيب؛ ففي الترغيب وعد بالإثابة، وتحبيب في الطاعة، والاستقامة على أوامر الله تعالى، وفي الترهيب زجر عن الانحراف، ومخالفة أوامر الله تعالى، والله تعالى هو أرحم الراحمين، ولا عدل، ولا مثيل لرحمته، فكما يُثيب بجنة عرضها السموات والأرض، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وكذلك يرزق بالحياة طيبة في الدنيا والآخرة لمن استقام على شرعه واتبع سبيل المؤمنين في التوحيد والإيمان والتقوى، فقد أوجد لمن تجاوز حدوده وطغى وتجبر العقوبات الزاجرة؛ لأنه عليم بشؤون خلقه وخفاياهم، وحكيم في معاملتهم بما يستحقون من ثواب وعقاب، قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ**

(٥٩) تفسير سورة الفاتحة، ص ١٢٦.

﴿ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[٦٠]. قال البغوي رحمه الله: "**﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾** ألا يعلم ما في الصدور من خلقها **﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾** لطيف علمه في القلوب الخبير بما فيها من الخير، والشر، والوسوسة"[٦١].

تاسعاً: اعتنت التربية الإسلامية أيما اعتناء باستنباط الأساليب التربوية المعينة على تربية الإنسان المسلم، من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ومن ذلك: التربية بالقصة، والتربية بالقدوة، التربية بضرب المثل، التربية بالموعظة، التربية بالحوار، التربية بالتدرج، وغير ذلك. ومع أهمية العناية بتطبيق هذه الأساليب في تربية الإنسان حسب الحال والمقال، يراعى عند تطبيقها أهمية التوازن؛ فلا يطغى جانب على جانب، وهو ملمح مهم لأن الإفراط في العقاب له أضراره، والإفراط في الثواب له أضراره، والمربي الخبير يضع الأمور في نصابها، ولذلك لا يَقْدُم على تربية الناشئة وتعليمهم إلا من لديه علم وخبرة؛ لأن أي خلل في التوازن عند استخدام أسلوبي الثواب والعقاب، أو غيرهما من الأساليب التربوية قد ينتج عنه أثاراً سلبية خطيرة على الفرد والمجتمع.

---

(٦٠) الملك: ١٤.

(٦١) تفسر البغوي (٨/ ١٧٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عاشراً: يُتداول أحياناً شبهة يذكرها غير المسلمين، أو قد تدور في ذهن قلة من المسلمين أن الله جل جلاله كيف يُوصف بالرحمة، وفي بعض مناطق العالم؛ تحدث زلازل، وكوارث من فيضانات وجوائح مختلفة تخلف دماراً كبيراً في الممتلكات، وتقتل آلاف الناس، وحقيقة أن من يورد مثل هذه الشبهة، إما أن يكون جاهلاً بعظمة الله وقدرته وحكمته في تدبير الكون والخلق، وإما بسبب انحراف في التصور والسلوك، والأولى لمن لديه لبس في فهم قضية من القضايا سؤال أهل العلم الثقات، استناداً لقول الله تعالى: ﴿**فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ**﴾(٦٢). قال السعدي رحمه الله: "وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة"(٦٣).

---

(٦٢) النحل: ٤٣.

(٦٣) تفسير السعدي (ص: ٤٤١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحادي عشر: وحول الرد على الشبهة الوارد ذكرها في الفقرة السابقة **"عاشراً"**؛ قال الله تعالى: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**﴾[١]. قال الطبري رحمه الله: "عن قتادة رحمه الله، قوله: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**﴾؛ وإن الله يخوف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون، أو يذكرون، أو يرجعون"[٢]. قال ابن تيمية رحمه الله: "والزلازل من الآيات التي يخوف الله بها عباده، كما يخوفهم بالكسوف وغيره من الآيات، والحوادث لها أسباب وحكم، فكونها آية يخوف الله بها عباده هي من حكمة ذلك"[٣]. وقال ابن القيم رحمه الله: "ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تُحدِث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه، والهواء، والزروع، والثمار، والمساكن، قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[٤]. ومن تأثير معاصي الله في الأرض، ما يحل بها من الخسف والزلازل"[٥]. وأختم بنصيحة

---

(١) الإسراء: ٥٩.

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٨).

(٣) الفتاوى، فصل: في الرعد والبرق، (٢٤/ ٢٦٤).

(٤) الروم: ٤١.

(٥) الداء والدواء، فصل: المعاصي تحدث أنواعاً من الفساد، ص ١٥٧-١٦٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بنصيحة مهمة قالها ابن باز رحمه الله: "فالواجب على جميع المكلفين من المسلمين وغيرهم، التوبة إلى الله عز وجل، والاستقامة على دينه، والحذر من كل ما نهى عنه من الشرك والمعاصي، حتى تحصل لهم العافية والنجاة في الدنيا والآخرة من جميع الشرور، وحتى يدفع الله عنهم كل بلاء، ويمنحهم كل خير، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾(١)".

---

(١) الأعراف:٩٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٢١)

تزكو النفس بفعل المأمورات وترك المنهيات

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ، وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تزكو النفس بفعل المأمورات وترك المنهيات

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ، وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[١].

تمهيد:

التزكية موضوع مهم للغاية، وقد لقي عناية كبيرة من علماء الإسلام قديماً وحديثاً، لما له من أثر بالغ في طهارة القلب، واستقامة السلوك، ونيل رضوان الله تعالى. وقد قَرَنَ الله عز وجل فلاح الإنسان بتزكية نفسه، فقال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، فكل من سعى في تهذيب نفسه وتطهيرها، فقد فاز بحسب التعبير القرآني البليغ بالفلاح الحقيقي. وعن معنى ﴿أَفۡلَحَ﴾، قال ابن عثيمين رحمه الله: "مأخوذ من الفلاح، والفلاح كلمة جامعة، وهو: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، هذا هو معنى الفلاح فهي كلمة جامعة لكل خير، دافعة لكل شر"[٢]. ولعلي في هذا المقال أستعرض بعض جوانب هذا الموضوع المهم، ليكون تذكيرًا لنفسي أولًا، ولمن يقرأه من إخواني، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) الأعلى: ١٤-١٥.

(٢) تفسير العثيمين، جزء عم، سورة العلق، ص ١٦٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال ابن كثير رحمه الله: "﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾، أي: أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتثالاً لشرع الله"(٣).

وقال السعدي رحمه الله: "﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾، أي: اتصف بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصًا الصلاة، التي هي ميزان الإيمان"(٤).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: توجد آيتين شبيهتين للآيتين موضوع المقال، وهي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّـٰهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(٥). وعن معنى هذه الآية

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٧٣).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٩٢١).

(٥) الشمس: ٩-١٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكريمة قال ابن القيم رحمه الله: "أي أفلح من كبَّرها وكثَّرها ونمَّاها بطاعة الله، وخاب من صغَّرها وحقَّرها بمعاصي الله، فالنفوسُ الشريفةُ لا ترضى من الأشياء إلَّا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبةً، والنفوسُ الدنيئة تحومُ حولَ الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنَّها أكبر من ذلك وأجلُّ، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾[(٦)]"[(٧)].

ثانياً: من المهم إلقاء الضوء على معنى "التزكية" لغة وشرعاً، وأصل التزكية من الزكاة؛ "والزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدح"[(٨)]. أما التزكية شرعاً فهي: "تطهير النفوس وإصلاحها بالعلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المنهيات"[(٩)]. كما أوضح الطبري رحمه الله المعنين

---

(٦) الإسراء: ٨٤ .

(٧) الفوائد، ص ٢٥٩ .

(٨) ابن منظور، لسان العرب، فصل الزاي، (١٤/٣٥٨) .

(٩) معالم في السلوك وتزكية النفوس، ص ٥٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

السابقين للتزكية عند قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾[١٠]، فقال: "أي: يطهرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان وينميهم ويكثرهم بطاعة الله"[١١].

ثالثاً: إضافة إلى ما سبق من توضيح معنى التزكية لغة وشرعاً، نجد ابن عثيمين رحمه الله يؤكد شمولها ويبين متعلقاتها، فقال: "إن التزكية كلمة عامة تشمل التطهر من كل درن ظاهر أو باطن، ولها ثلاثة متعلقات: الأول: في حق الله، والثاني: في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، والثالث: في حق عامة الناس، في حق الله تعالى يتزكى من الشرك، فيعبد الله تعالى مخلصاً له الدين. في حق الرسول صلى الله عليه وسلم يتزكى من الابتداع، فيعبد الله على مقتضى شريعة النبي صلى الله عليه وسلم في العقيدة، والقول، والعمل. في معاملة الناس يتزكى من الغل والحقد والعداوة والبغضاء، وكل ما يجلب العداوة والبغضاء بين المسلمين يتجنبه، ويفعل كل ما فيه المودة والمحبة"[١٢].

رابعاً: لقد حظي النبي محمد صلى الله عليه وسلم بعناية إلهية خاصة، كانت تمهيدًا لرسالته العالمية الخاتمة التي بُعث بها إلى الناس كافة، كما قال

---

(١٠) البقرة: ١٢٩.

(١١) تفسير الطبري (٣/ ٨٨).

(١٢) تفسير العثيمين، جزء عم، سورة العلق، ص ١٦٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[١٣]. ولا شك أن هذه المهمة العظيمة تقتضي إعدادًا إلهيًا فريدًا، يهيئ القائد لحمل أمانة الدعوة، ويُزكّيه في جميع جوانب شخصيته: خَلْقًا وخُلُقًا، عقلًا وروحًا، ظاهرًا وباطنًا. وقد تجلت هذه التزكية في مواضع عدة من القرآن الكريم، حيث زكّى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم تزكية شاملة: فقال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾[١٤]، وزكاه في بصره، فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[١٥]، وزكاه في لسانه، فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾[١٦]، وزكاه في فؤاده، فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[١٧]، وزكاه في صدره، فقال: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾[١٨]، وزكاه في مُعلِّمه، فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾[١٩]، وزكاه في أخلاقه، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[٢٠].

---

(١٣) سبأ: ٢٨.

(١٤) النجم: ٢.

(١٥) النجم: ١٧.

(١٦) النجم: ٣.

(١٧) النجم: ١١.

(١٨) الشرح: ١.

(١٩) النجم: ٥.

(٢٠) القلم: ٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خامساً: بين القرآن الكريم المهمات الأساسية للنبي صلى الله عليه وسلم في رعاية أمته في عدد من الآيات، وتتركز في أربع وظائف: تلاوة الآيات، التزكية، تعليم الكتاب، تعليم الحكمة. وجميع الآيات متفقة في مضمون الرسالة النبوية ووظائفها، لكنها تختلف وتتنوع بحسب السياق، وهي: قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ**﴾[1]، وقوله جل جلاله: ﴿**كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ**﴾[2].

تَعۡلَمُونَ﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿**لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ** **فِيهِمۡ** **رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ**﴾[3]. وقال عز وجل: ﴿**هُوَ** ﴿**هُوَ** **ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ**﴾[4]. وهنا

---

(١) البقرة: ١٢٩.

(٢) البقرة: ١٥١.

(٣) آل عمران: ١٦٤.

(٤) الجمعة: ٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهنا ملحظ تجدر الإشارة إليه، وهو: أن الآيات المشار إليها قدّمت التزكية أحيانًا على التعليم، وأخّرته في موضع واحد فقط **(البقرة: ١٢٩)**. وقد تنوعت آراء العلماء في تفسير هذا التقديم والتأخير، ويصعب الجزم بسبب معين، غير أن ما ذكره عبد العلي المسؤول فيه معنى لطيف، حيث قال: "إن التزكية قدمت تارة على التعليم وأخرت تارة أخرى، لنعلم أنها ينبغي تجددها، فهي قبل التعليم واجبة، وهي بعده لابد منها"(١).

سادساً: إن من أعظم مقاصد الإعداد الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يكون قدوةً لأمته، يُحتذى به في أقواله وأفعاله وسائر شؤونه، ولهذا، جاءت سيرته العطرة واضحة جلية، كالشمس في رابعة النهار، لتكون نبراسًا لمن أراد النجاة وسلك سبيل الهداية. وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى العظيم في قوله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا**﴾(٢). ومن زاغ عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم وهدي القويم، فقد عرَّض نفسه للهلاك، كما قال عليه الصلاة والسلام: "لقد تركتُكم على مِثْلِ البيضاء، ليلُها كنهارِها، لا

(١) منهاج القرآن الكريم في التزكية والتعليم، موقع مدرسة عبد السلام ياسين.

(٢) الأحزاب: ٢١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَزيغُ عنها إلا هالكٌ"(١). وأوضح عبد المحسن العباد معنى ذلك: "أن الرسول صلى الله عليه وسلم بيَّن للناس ما يحتاجون إليه، وأنه ما ترك أمراً يقرب إلى الله إلا دلهم عليه، وما ترك أمراً يباعد من الله إلا حذرهم منه، فشريعته كاملة، وقد تركهم على بيضاء في وضوحها وجلائها، من أخذ بها سلم، ومن يزيغ عنها هو الهالك"(٢).

سابعاً: ترتكز الآيتان الكريمتان موضوع المقال على قاعدة تربوية مهمة في تزكية النفس؛ وهي قاعدة: "التخلية والتحلية"، وهي قاعدة مشهورة ومعتمدة لدى العلماء والمصلحين والمربين، فقوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**﴾ يشير إلى التخلية، أي: تطهير النفس من الشرك والذنوب ومساوئ الأخلاق؛ لأن صلاح النفس لا يتحقق ما دامت مثقلة بالرذائل، ثم جاء قوله تعالى: ﴿**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾ ليُبرز جانب التحلية، أي: تزيين النفس بالإيمان والأعمال الصالحة، وعلى رأسها الصلاة وذكر الله تعالى، فهي زاد الروح وربيع القلب، فمنهج التزكية يبدأ بالتطهير

(١) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، الترهيب من ترك السنة وارتكاب البدع والأهواء، رقم: ٥٩.

(٢) شرح الأربعين النووية، معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "تركتكم على البيضاء"، ٢٦/٢٥.

أولًا، ثم التزيين والتكميل؛ إذ لا تُقبل الزينة على قلب ملوّث، كما أن الفضائل لا تستقر في نفس ما زالت تمتلئ بالمعايب. ويلخص معنى القاعدة ابن عثيمين رحمه الله فيقول: "يتخلى الإنسان أولاً عن مساوئ الأخلاق، ثم بعد ذلك يتحلى بالمكارم حتى ترد المكارم على محل خالٍ من المساوئ"(١).

ثامناً: هناك شواهد كثيرة لقاعدة التخلية والتحلية من القرآن الكريم والسنة المطهرة، فمن القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ**﴾(٢)، الكفر بالطاغوت "تخلية" والإيمان بالله تعالى "تحلية"، وقوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا**﴾(٣)، فقدمت التوبة من المعاصي "تخلية" قبل الأعمال الصالحة "تحلية". ومن السنة النبوية، قوله صلى الله عليه وسلم: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ"(٤)، إزالة الكبر من النفس "تخلية" التواضع والإقبال على الأعمال الصالحة الموجبة لدخول الجنة "تحلية".

---

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، (٦/٤١٧).

(٢) البقرة:٢٥٦.

(٣) الفرقان:٧٠.

(٤) صحيح مسلم، باب: تحريم الكبر وبيانه، رقم: ٩١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تاسعاً: يُقرِّر أهل العلم في مجال تزكية النفس أن التخلية في الغالب مقدّمة على التحلية، لأن إصلاح النفس وتزكيتها يبدأ بإزالة النقص والفساد أولًا، ثم تُتبع بالتزيين والتحسين. ويؤكد هذه القاعدة الرازي رحمه الله بقوله: "إزالة ما لا ينبغي مقدم في الرتبة على فعل ما ينبغي"(١). ويُفصّل هذا المعنى ابن عثيمين رحمه الله بقوله: "ووجه كون التخلية قبل التحلية أن التحلية إذا وردت على محل غير نظيف صارت ناقصة متلوثة، فأنت طهِّر المحل أولًا، ثم حلِّه ثانيًا"(٢). وبالرغم من هذا الترتيب المنهجي إلا أن عملية التزكية تظل متكاملة ومترابطة، حيث تتعاقب فيها مراحل التخلية والتحلية بصورة مستمرة، وتحتاج إلى مجاهدة ومتابعة دائمة، وتذكير متواصل، لأن النفس بطبيعتها تميل إلى الغفلة وتعتريها التقلبات. وقد نوه سالم البطاطي عن ذلك بقوله: "عملية التخلية والتحلية عملية مستمرة لا يستغني عنها المربي أبداً، وهذه العملية الضخمة لا تتم إلاّ بالمتابعة، فإذا تمت تخلية النفس من اتباع الهوى، وتحليتها بفعل الخيرات والفضائل وجب بعد ذلك أن ينصبَّ

(١) تفسير الرازي (١٧/ ١٨٧).

(٢) تفسير ابن عثيمين، غافر: ٦٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الاهتمام على متابعة النفس في فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات"(١).

عاشراً: قد يتبادر إلى الذهن سؤال وجيه: **هل هناك فرق بين مصطلحي "التزكية" و"التربية"؟** والحقيقة أن هذا السؤال في محلّه، وقد تناول المختصون هذا الموضوع، فمنهم من يرى أن التزكية والتربية مترادفان في المعنى، إذ يدور كلا المصطلحين حول تهذيب النفس، وتطهيرها، واستقامتها، ومنهم من يفرّق بينهما على اعتبار أن التزكية أوسع وأشمل من التربية، فالتزكية تشمل الجانب الروحي والبدني معًا، في حين تُركّز التربية غالبًا على الجانب البدني، ويُستأنس لهذا الرأي بأن مصطلح "التزكية" هو الوارد في الخطاب القرآني، عند الآيات الكريمات التي بينت المهمة الجليلة التي أنيطت بالنبي صلى الله عليه وسلم في تعليم وتزكية أمته، وتم ذكرها في الفقرة: "**خامساً**"، وهذا يدل على قوة مدلول التزكية وشمولها، ومع ذلك، فإن مصطلح "التربية" أكثر شيوعًا في الأوساط التعليمية والتربوية المعاصرة، وله أسباب في التداول والانتشار لا يسع المقام لذكرها هنا، وبناء على ما سبق، يمكن القول: "**لا**

---

(١) مجلة البيان رقم: ١٩٥، ص ٢٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مشاحة في الاصطلاح"، ما دام المقصود من كلا المصطلحين هو تهذيب النفس وتكميلها، روحًا وبدنًا، والسير بها في طريق الصلاح والفلاح.

الحادي عشر: ينبغي للمسلم أن يعتني بتزكية نفسه، وفي الوقت نفسه يتجنب مدحها وتمجيدها والثناء عليها، فذلك منهيٌّ عنه شرعاً بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ**﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا**﴾(٢). قال ابن باز رحمه الله: "الآية عامَّة في المعنى في كلِّ مَن يُزَكِّي نفسَه، فالله جلَّ وعلا هو الذي يعلم حالَه، هو الذي يُزَكِّي مَن يشاء، والمؤمن عليه أن يسأل ربَّه التوفيق، وأن يجتهد بطاعة الله، ويُزري على نفسه ويتَّهمها ولا يُزَكِّيها، بل لا يزال يُحاسبها ويُجاهدها لعله ينجو، والله هو الذي يُزَكِّي مَن يشاء سبحانه وتعالى، مَن زكَّاه الله فهو الزَّكِيّ". وفي السنة الشريفة ورد عَنْ محمد بن عمرو بن عطاء قَالَ: سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنْ هَذَا الِاسْمِ، وَسُمِّيتُ بَرَّةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله

---

(١) النجم: ٣٢.

(٢) النساء: ٤٩.

عليه وسلم: "لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ، اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ، فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيهَا؟ قَالَ: سَمُّوهَا زَيْنَبَ"(١).

الثاني عشر: على العبد أن يجتهد في الأخذ بأسباب الهداية والاستقامة، من اتباع الحق، والعمل الصالح، وطلب العلم، ومجاهدة النفس، فذلك مما أمر الله به عباده، إلا أن الهداية الحقيقية، والثبات على الصراط المستقيم، وتزكية النفس، لا تكون إلا بتوفيق الله وفضله، وهو القائل سبحانه: ﴿**وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ**﴾(٢). ويؤكد هذه الحقيقة الشنقيطي رحمه الله فيقول: "أن ما يتزكى به العبد من إيمان وعمل في طاعة وترك لمعصية، فإنه بفضل من الله، كما في قوله تعالى المصرح بذلك: ﴿**وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا**﴾(٣). وكل النصوص التي فيها عود الضمير، أو إسناد التزكية إلى العبد، فإنها بفضل من الله ورحمته، كما تفضل عليه بالهدى والتوفيق للإيمان، فهو الذي يتفضل عليه بالتوفيق إلى العمل الصالح، وترك المعاصي، كما في قوله: ﴿**فَلَا تُزَكُّوٓاْ**

(١) صحيح مسلم، باب: استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، رقم: ٢١٤٢.

(٢) النور: ٤٠.

(٣) النور: ٢١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَنفُسَكُمۡ﴾[١]، وقوله: **﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾**[٢]، الجمع بين الأمرين، القدري والشرعي: بل الله يزكي من يشاء بفضله، ولا يظلمون فتيلا بعدله"[٣].

الثالث عشر: بعد أن تبيَّنت أهمية تزكية النفس، لتهيئتها لعبادة الله تعالى، وتحقيق الغاية التي خُلق الإنسان لأجلها، كما قال الله عز وجل: **﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾**[٤]. قال السعدي رحمه الله: "هذه الغاية، التي خَلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته

---

(١) النجم: ٣٢.

(٢) النساء: ٤٩.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٥٤٢).

(٤) الذاريات: ٥٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم"[١].

وهنا سؤال يطرح نفسه؛ **كيف يزكّي المسلم نفسه؟** والجواب يتطلب العناية بعدة أمور عملية، منها:

- الدعاء المستمر بطلب التزكية والهداية والتوفيق وخاصة في أوقات الإجابة، تأسِّيًا بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا"[٢].
- الحرص على طلب العلم الشرعي المؤصل من القرآن الكريم والسنة المطهرة، على يدي العلماء الثقات، فهو الطريق الأمثل لتزكية النفس، وصدق الله العظيم: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾[٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"[٤].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨١٣).

(٢) صحيح مسلم، باب: التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، رقم: ٢٧٢٢.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) صحيح البخاري، باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم: ٧١، صحيح مسلم، باب: النهي عن المسألة، رقم: ١٠٣٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- إن التزام النفس بالأوامر واجتناب النواهي قد يكون فيه مشقة ابتداءً، وحينئذ فهي بحاجة إلى مجاهدة حتى تطمئن وتأنس بالعبادة، قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**﴾(١) ، وقال سبحانه: ﴿**فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ**﴾(٢). ولكن مع مرور الوقت ورسوخ حقيقة العبودية في القلب لا تشعر بتلك المشقة البتة، بل تتلذذ بها وتعيش معها في اطمئنان وراحة بال، وقد يطول الوقت أو يقصر لبلوغ ذلك بحسب الإخلاص وقوة التوجه إلى الله جل جلاله.
- العناية بمحاسبة النفس من أجل إصلاحها وتكميلها شيئاً فشيئاً، وهو ما عبر عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مقولته الشهيرة: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا"(٣). ولابن القيم رحمه الله كلام جميل عن أهمية محاسبة النفس قال: "فإن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح البتة إلاّ

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) مريم:٦٥.

(٣) أحمد بن حنبل، الزهد، ص ٩٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بمحاسبتها"[١]. وهذا يتسق مع قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[٢]. قال البغوي نقلاً عن مجاهد رحمهما الله: "تندم على ما فات وتقول: لو فعلت، ولو لم أفعل"[٣].

الرابع عشر: إن أعظم ما يسعى إليه العبد في هذه الدنيا هو رضا الله تعالى عنه، والفوز بجنته التي أعدها لعباده الصالحين، والتي لا يُقارن نعيمها بشيء من مُتَع الدنيا، كما قال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "قَالَ اللَّهُ تعالى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بشر"[٤]. ولا شك أن ذلك بفضل الله تعالى ورحمته، وفق ما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم: "لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ"[٥]. ومع ذلك،

---

(١) مدارج السالكين، (٢/ ٤٧٧).

(٢) القيامة: ٢.

(٣) تفسر البغوي (٨/ ٢٨٠).

(٤) صحيح البخاري، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم: ٣٠٧٢، صحيح مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم: ٢٨٢٤.

(٥) صحيح البخاري، باب: القصد والمداومة على العمل، رقم: ٦٤٦٣، صحيح مسلم، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم: ٢٨١٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فإن الأخذ بالأسباب في تزكية النفس سبب رئيس للفوز برحمة الله تعالى، فرحمته قريبة من المحسنين الذين اجتهدوا في طاعته، كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**﴾(١). وقد بيَّن الله عز وجل عاقبة من جاءه مؤمنًا، قد طهَّر نفسه وأصلح عمله، فقال: ﴿**وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ، جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ**﴾(٢). قال الطبري رحمه الله: "الدرجات العلى التي هي جنات عدن على ما وصف جل جلاله ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه"(٣).

---

(١) الأعراف: ٥٦.

(٢) طه: ٧٥-٧٦.

(٣) تفسير الطبري (١٨/ ٣٤٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٢٢)

الرجوع إلى اللّه ومسؤولية الحساب

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الرجوع إلى اللّه ومسؤولية الحساب

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[١].

تمهيد:

لا يتصور عاقل موفق أن الله تعالى خلق الإنسان عبثًا، يحيي في الدنيا بلا هدف، ولا حساب، ولا رقيب. وقد أنكر القرآن الكريم ادعاء الكافرين بأنهم لن يُبعثوا يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٢]. وجاء الرد الإلهي الحاسم في قوله عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٣]. قال البغوي رحمه الله: "أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وهو مثل قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[٤]. وإنما خلقتم للعبادة وإقامة

---

(١) الغاشية: ٢٥-٢٦.

(٢) التغابن:٧.

(٣) المؤمنون: ١١٥.

(٤) القيامة:٣٦.

أوامر الله عز وجل"[٥]. وقد أوجز الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، هذه الحقيقة في بيتين بليغين حين قال:

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت غاية كل حيِّ
ولكنا إذا متنا بعثنا ويسأل ربنا عن كل شيِّ

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الشنقيطي رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾؛ فيه الدلالة على أن الإياب هو المرجع، كما في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٦]، وهو على الحقيقة كما في صريح منطوق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٨]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾، الإتيان بـ﴿ثُمَّ﴾ للإشعار ما بين إيابهم وبدء حسابهم، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٩]، وقوله:

---

(٥) تفسير البغوي (٥/ ٤٣٢).

(٦) المائدة: ٤٨.

(٧) النساء: ٥٥.

(٨) الأنعام: ١٦٤.

(٩) الحج: ٤٧.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾، بتقدم حرف التأكيد، وإسناد ذلك لله تعالى، وبحرف "على" مما يؤكد ذلك لا محالة، وأنه بأدق ما يكون، وعلى الصغيرة والكبيرة كما في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[10]، وفي الآيتين تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتخويف لأولئك الذين تولوا وأعرضوا، ثم إن الحساب في اليوم الآخر ليس خاصاً بهؤلاء، بل هو عام بجميع الخلائق"[11].

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: الرجوع إلى الله تعالى حقيقة قطعية لا تقبل الجدل؛ إذ إن مصير كل المخلوقات ومرجعها إليه سبحانه، مهما طال بهم الزمن أو قصر. وقد قرر الله عز وجل ذلك في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، منها قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[12]. وهي حقيقة مستقرة في قلوب المؤمنين، توقظ فيهم الخوف من الله تعالى، وتثير في المتقين الوجل والرهبة. وقد أكد القرآن الكريم هذا المصير في آيات عديدة، كقوله عز

---

(١٠) البقرة: ٢٨٤.

(١١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٥١٩).

(١٢) العنكبوت: ٥٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وجل: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[١٣]. وفي تفسير هذه الآية، قال البغوي رحمه الله: "أي: مستقر الخلق، ثم أورد قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأن: المصير والمرجع، نظيره: قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾[١٤]، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[١٥]"[١٦].

ثانياً: إذا كان الرجوع إلى الله تعالى أمرًا محققًا، فإن هناك حقيقة ملازمة له لا تنفك عنه، وهي حقيقة الحساب، إذ لا يكون الرجوع مجرد عودة، بل عودة تُقام فيها الموازين وتُعرض فيها الأعمال. وقد أشار إلى ذلك ابن عثيمين رحمه الله بقوله: "وإذا كان المرجع إلى الله في كل الأمور فإنه لا يمكن لأحد أن يفر من قضاء الله أبداً، ولا من ثواب الله وعدله"[١٧]. وهذا المعنى مؤكد في كثير من آيات القرآن الكريم، منها قول الله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ

---

(١٣) القيامة: ١٢.

(١٤) العلق:٨.

(١٥) آل عمران:٢٨، النور:٤٢، فاطر:١٨.

(١٦) تفسير البغوي (٨/ ٢٨٢).

(١٧) تفسير جزء عم، سورة العلق، ص ٢٦١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[١٨]. وفي تفسير هذه الآية قال المراغي رحمه الله: "أي: ونحضر يوم القيامة الموازين العادلة التي توزن بها صحائف الأعمال، والمراد من الوزن العدل بينهم، فلا يظلم عباده مثقال ذرة، فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه: أي ذهبت حسناته بسيئاته، ومن أحاطت سيئاته بحسناته خفت موازينه: أي ذهبت سيئاته بحسناته، ﴿**فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**﴾، أي: فلا تظلم أيّ نفس شيئاً من الظلم، فلا ينقص ثوابها الذي تستحقه، ولا يزاد عذابها الذي كان لها على قدر ما دسّت به نفسها من سيئ الأعمال، ﴿**وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا**﴾، أي: وإن كان العمل الذي فعلته النفس صغيراً مقدار حبة الخردل جازينا عليه جزاءً وفاقاً، سيئاً كان أو حسناً، ﴿**وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾، أي: وحسب من شهدوا ذلك الموقف بنا حاسبين لأعمالهم محصنين لها، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف منهم في الدنيا من صالح أو سيئ منا"[١٩].

(١٨) الأنبياء: ٤٧.

(١٩) تفسير المراغي (١٧/ ٣٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثالثًا: من أركان الإيمان التي بيّنها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور، الإيمان بالبعث بعد الموت، فقد قال عليه الصلاة والسلام عندما سُئل عن الإيمان: "الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وملائكته ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر"(١). ولذلك، فإن الإيمان بأن الخلائق سيعودون إلى ربهم ليُحاسبوا يوم القيامة، هو عقيدة راسخة في قلب كل مؤمن، لأنها تمثل جزءًا جوهريًا من إيمانه. والحمد لله على نعمة الإسلام، لكن مع ذلك، فإن كثيرًا من الناس لا يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ**﴾(٢). وإن تأملت في حال هؤلاء، وجدتهم أذكياء في شؤون دنياهم، بارعين في علومها، لكنهم غافلون عن الآخرة، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ**﴾(٣). بل إن بعضهم ينكر البعث، ويقول كما كما حكى الله عنهم: ﴿**مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ**

---

(١) صحيح البخاري، باب: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام، حديث رقم: ٥٠.

(٢) غافر: ٥٩.

(٣) الروم: ٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[١]. وهو قول باطل لا يستند إلى علم، وإنما هو مجرد ظنون، والقرآن الكريم يرد عليهم بأوضح بيان: ﴿**قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٢].

رابعاً: إن غفلة كثير من الناس عن يوم المعاد والحساب، ليست أمراً جديداً، بل هي ظاهرة تكررت عبر العصور، وقد سجل القرآن الكريم حال مشركي مكة الذين أنكروا البعث، بل وأقسموا بالله جهد أيمانهم على استحالته، كما قال تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٣]. وقد بيّن ابن كثير رحمه الله معنى الآية، فقال: "يقول تعالى مخبراً عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿**بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ**﴾، أي: اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿**لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ**﴾، أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم ورداً عليهم: ﴿**بَلَىٰ**﴾، أي: بلى سيكون ذلك، ﴿**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا**﴾، أي:

---

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) الجاثية: ٢٦.

(٣) النحل: ٣٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا بد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر"[١]. ولهذا جاء في القرآن الوعيد الشديد للمكذبين بيوم الدين، فقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ، ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ، وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[٢]. ومن كمال عدل الله وحكمته، أن يكون هناك بعث بعد الموت، ليُجازى كل إنسان بما قدَّم في حياته، فإن كان خيراً فخير، وإن كان شرًا فشر، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٣].

خامساً: إن ترسيخ حقيقة المعاد والحساب في عقل المسلم ووجدانه أمر بالغ الأهمية، لأنه يدفعه إلى التزام أوامر الله تعالى والانتهاء عن نواهيه، ويجعله دائم الحذر من الوقوع فيما يغضب الله. ولذلك جاء التأكيد على هذه الحقيقة في آخر آية نزلت من القرآن الكريم، لتكون بمثابة تذكير ختامي جامع، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٠).

(٢) المطففين: ١٠-١٢.

(٣) الكهف: ٤٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[١]. وأوضح السعدي رحمه الله معنى ذلك: "هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي؛ لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجلي والخفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أوجب له الرغبة والرهبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك"[٢].

سادساً: تتضمن الآيتان موضوع المقال أسلوب التهديد والوعيد، وهو منهج تربوي يتوافق مع فطرة الإنسان وطبيعة النفس البشرية؛ فكما أن الإنسان بحاجة إلى الترغيب، فهو بحاجة أيضاً إلى الترهيب. ومن كمال الحكمة أن يُستخدم كل أسلوب في موضعه المناسب، ليحقق أعظم الأثر في تقويم النفس وتربيتها. ولما كانت مسألة الرجوع إلى الله من القضايا العظيمة في حياة الإنسان، كان من الضروري لفت الانتباه إليها بشدة، حتى يكون العبد واعياً بحدود ما شرعه الله له من أوامر ونواهٍ، فلا يتجاوزها، وهذا في

---

(١) البقرة: ٢٨١.

(٢) تفسير السعدي (ص: ١١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حقيقته من رحمة الله تعالى بعباده، إذ يحذرهم لينبههم، ويقسو أحياناً ليُرشدهم، كما قال الشاعر:

فقسا لتزدجروا ومن يكُ حازماً ... فليقس أحياناً علَى من يرحمُ

ولذلك فإني أوصي الوالدين والمربين بأهمية تعلم الأساليب التربوية في القرآن الكريم، ومعرفة كيفية تطبيقها، ليكون لتوجيههم وإرشادهم أثر إيجابي فعّال في نفوس من يربّونهم.

سابعاً من أبرز أسباب جهل كثير من الناس بحقيقة الإياب إلى الله تعالى، وما يتبع ذلك من الحساب على كل قول وفعل واعتقاد، هو ضعف العلم النافع في نفوسهم، وعلى رأسه العلم الشرعي. ولهذا رفع الإسلام من شأن العلم، واعتبر طلبه فريضة على كل مسلم، كما قال صلى الله عليه وسلم: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"(١). وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن إرادة الخير بالعبد تتجلى في فقهه في الدين، فقال: "مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ"(٢). قال النووي رحمه الله: "فيه فضيلة العلم، والتفقُّه في

---

(١) الألباني، صحيح الجامع، رقم: ٣٩١٤.

(٢) صحيح البخاري، باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، حديث رقم: ٧١، صحيح مسلم، باب: النهي عن المسألة، حديث رقم: ١٠٣٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الدين، والحث عليه، وسببه: أنه قائد إلى تقوى الله تعالى"[١]. ومن أعظم العلوم التي ينبغي للمسلم الحرص عليها: علم القرآن الكريم، بتلاوته وتدبّره، ثم معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العُليا، ودراسة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وسير الخلفاء الراشدين، والتابعين لهم بإحسان؛ فهذه العلوم تزكي النفس، وتقوّي الإيمان، وتغرس في القلب يقين الإياب إلى الله تعالى[٢].

ثامناً: إن الحساب يوم القيامة أمر لا مفر منه لجميع الناس، إلا من استثناهم الله تعالى برحمته وفضله، كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لَا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون"[٣]. أوضح ابن باز رحمه الله معنى ذلك: "يعني: هم الذين استقاموا على دين الله من أهل التقوى والإيمان، وعبدوا الله وحده، وأدوا فرائضه، وتركوا محارمه، واجتهدوا في أنواع الخير، حتى تركوا بعض ما يستحب تركه كالاسترقاء، والكي من كمال

---

(١) النووي، شرح مسلم، ٧/ ١٢٨.

(٢) انظر: مقال: ملامح تربوية من قول الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، موقع الألوكة.

(٣) صحيح البخاري، باب: ومن يتوكل على الله فهو حسبه، حديث رقم: ٦١٠٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إيمانهم"(١). وفي هذا الحديث لفتة مهمة؛ إذ يبيّن أن النجاة من الحساب منزلة رفيعة لا ينالها إلا من بلغ مرتبة عالية من الإيمان، والتوكل، واليقين، والتجرد لله تعالى، وهو ما ينبغي أن يكون دافعًا لكل مسلم للسعي نحو تحقيق هذه الصفات وتزكية النفس بها.

تاسعاً: إن الوقوف بين يدي الله يوم القيامة موقفٌ مهيب، يخشاه حتى المؤمنون الصالحون، كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ**﴾(٢). ومع هذا الخوف، يملأ قلوبهم حسن الظن بالله تعالى، فهم يعلمون أنه أرحم بهم من أنفسهم، كما جاء في الحديث القدسي: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي"(٣). وقد نبه ابن القيم رحمه الله أن حسن الظن بالله لا ينفصل عن حسن العمل، فقال: "إن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها

---

(١) موقع الإمام ابن باز رحمه الله، صفات السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، نور على الدرب.

(٢) المؤمنون: ٦٠.

(٣) صحيح البخاري، باب: قول الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه}، حديث رقم: ٦٩٧٠، صحيح مسلم، باب: الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم: ٢٦٧٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله"[١]. فالمؤمن يجمع بين الخوف والرجاء، ويعيش بين القلق من التقصير، والأمل في رحمة الكريم، متوكلاً على الله، موقنًا بعدله وفضله.

عاشراً: رغم تأكيد آيات القرآن الكريم، ومنها آية المقال، على حتمية الحساب يوم القيامة، إلا أن هذا الحساب يتم بين يدي أرحم الراحمين، كما قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾[٢]. وقد وصف ابن كثير هذه الآية بقوله: "آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا**﴾[٣]"[٤]. كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عرشه: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"[٥]. ولابن عثيمين توضيح مهم لكيفية الحساب يوم القيامة أذكره بتصرف، قال

---

(١) الجواب الكافي، فصل: مغالطة النفس حول الأسباب، ص ٢٧.

(٢) الأعراف: ١٥٦.

(٣) غافر:٧.

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٣).

(٥) صحيح البخاري، باب: "وكان عرشه على الماء"، حديث رقم: ٦٩٨٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رحمه الله: "قال العلماء: وكيفية الحساب ليس مناقشة يناقش الإنسان، لأنه لو يناقش هلك، لو يناقشك الله عز وجل على كل حساب هلكت، لو ناقشك في نعمة من النعم كالبصر لا يمكن أن تجد أي شيء تعمله يقابل نعمة البصر، فلو نوقش لهلك؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: "مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ"[١]. كما ذكر فضيلته رحمه الله حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يوضح كيفية حساب المؤمن والكافر والمنافق، ونصه: "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿**هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾[٢]"[٣].

---

(١) صحيح مسلم، باب: إثبات الحساب، حديث رقم: ٢٨٧٦.

(٢) هود: ١٨.

(٣) صحيح البخاري، باب: قول الله تعالى: {ألا لعنة الله على الظالمين}، حديث رقم: ٢٣٠٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحادي عشر: جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَتُؤَدَّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ"(١). وقد علّق النووي رحمه الله على هذا الحديث، قائلاً: "هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين، وكما يعاد الأطفال، والمجانين ومن لم تبلغه دعوة، وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾(٢)"(٣). كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن الله عز وجل يوم القيامة يحشر البهائم ويقتص لبعضها من بعض، ثم يقول لها: كوني تراباً، فتصير تراباً، فيقول الكافر حينئذ: ﴿**يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا**﴾(٤)"(٥).

الثاني عشر: من أعظم ما يُبتلى به الإنسان في دنياه أن يظلم غيره ويؤذيهم، سواء بأخذ أموالهم، أو سفك دمائهم، أو شتمهم، أو ضربهم، أو احتقارهم، ثم يلقى ربه بتلك المظالم دون أن يتوب أو يتحلل من أصحابها،

---

(١) صحيح مسلم، باب: تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨٢.

(٢) التكوير: ٦.

(٣) شرح النووي على مسلم، (١٦/١٣٦).

(٤) عمّ: ٤٠.

(٥) مجموع الفتاوى، (٤/١٤٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد جاءت النصوص النبوية محذّرة من خطورة التفريط في حقوق العباد، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الحديث الصحيح، كان لا يُصلي على من مات وعليه دين لم يُقضَ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تُوفي المؤمن، وعليه دين، سأل: "هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ مِنْ قَضَاء؟ فان قالوا: نعم، صلَّى عليه، وإن قالوا: لا، قال: صَلُّوا عَلَى صَاحِبكُمْ"(١). وقد استنبط العلماء من هذا وأمثاله قاعدة فقهية عظيمة تقول: "حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة"، أي أن الله عز وجل واسع العفو عن حقوقه، أما العباد فإنهم لا يتنازلون بسهولة عن حقوقهم، ويُقتصّ لهم يوم القيامة، وقد قال ابن عثيمين رحمه الله: "أن حق الآدمي مبني على المشاحة لأن الآدمي يريد حقه، وحق الله مبني على المسامحة والله تعالى يعفو عن حقه"(٢).

الثالث عشر: ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ

---

(١) الألباني، صحيح سنن النسائي، باب: الصلاة على من عليه دين، رقم: ١٨٥٤.

(٢) زاد المستقنع، كتاب الوصايا، موقع أهل الحديث والأثر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"(١). يتضح من هذا الحديث النبوي الشريف خطورة ظلم العباد، مهما كانت أعمال الإنسان الصالحة، فإنها لا تنفعه إن كان قد أساء إلى الناس بلسانه أو فعله أو ماله. ولهذا يجب على المسلم أن يتقي الله في تعاملاته، وأن يحرص على ألا يُلحق الأذى بالآخرين بأي صورة من صور الظلم، فحقوق الله تعالى، مع جلال قدرها، مبنية على العفو والمسامحة، والله عز وجل يغفر منها ما يشاء، أما حقوق العباد فهي مبنية على المشاحة، لا تسقط إلا بعفو أصحابها أو رد المظالم إليهم. وقد أجمع العلماء على أن من شروط التوبة النصوح إذا كانت المعصية تتعلق بحقوق الآدميين، "أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها إذا لم يترتب على الاستحلال نفسه مفسدة أخرى"(٢).

---

(١) صحيح مسلم، باب: تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨١.

(٢) الشوكاني، الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني، تحقيق محمد صبحي، (١٢٨٩/٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٢٣)

نعيم الدنيا وسؤال الآخرة

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نعيم الدنيا وسؤال الآخرة

﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[١].

تمهيد:

إن الله جلّ جلاله وحده المتفضل على عباده بكل النعم التي يتنعمون بها ليلاً ونهاراً، ولأهمية فضلها، وعِظَمِ قدرها؛ ولا منتهى لسعتها، فهي لا تُعد ولا تُحصى، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[٢]. قال السعدي رحمه الله: "أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك"[٣]. وقال ابن كثير رحمه الله: "يُخْبِر عن عجز العباد عن تَعْداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها"[٤].

---

(١) التكاثر: ٨.

(٢) إبراهيم:٣٤.

(٣) تفسير السعدي (ص: ٤٢٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:

قال الطبري رحمه الله: "وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟ وقيل: يُسأل عن كلّ ما التذّه الإنسان في الدنيا من شيء، وقيل: إن الله تعالى ذكره سائل كلّ ذي نعمة فيما أنعم عليه. وختم الطبري رحمه الله قائلاً: والصواب من القول في ذلك: أن يُقال: إن الله أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم، ولم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع، بل عمّ بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم، لا عن بعض دون بعض"(٥).

وقال ابن كثير رحمه الله: "أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة، والأمن، والرزق، وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته"(٦).

---

(٥) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٨١، وما بعدها).

(٦) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٥٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإتماماً لما سبق؛ فمن شواهد السنة النبوية المطهرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم؛ فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار، فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرمُ أضيافاً مني، فانطلق فجاءهم بعِذْق فيه بُسْر وتَمر ورُطب، وأخذ المدية فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ"(٧).

الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:

أولاً: إن القرآن الكريم كتاب هداية لخيري الدنيا والآخرة، ومنْ لم يعتن بقراءته وتدبره فلا يتمكن البتة من الحصول على هداياته، قال تعالى: ﴿**كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ**﴾(٨). قال السعدي رحمه الله: "فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة،

(٧) صحيح مسلم، باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه، حديث رقم: ٢٠٣٨.

(٨) ص:٢٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون. وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، والحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره"(٩).

ثانياً: كم هي مرعبة الآية موضوع المقال لما احتوت عليه من الوعيد؛ عندما جاءت بالسؤال يوم القيامة عن ما تَنَعْم به الإنسان في الدنيا، وجاء التأكيد بلام القسم، ونون التوكيد الثقيلة ﴿**ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ**﴾، مما يدل على أهمية السؤال وخطورته قال طنطاوي رحمه الله في تفسيره الوسيط: "أي: والله لتسألن يوم القيامة عن ألوان النعم التي منحكم الله تعالى إياها، فمن أدى ما يجب عليه نحوها من شكر الله تعالى عليها كان من السعداء، ومن جحدها وغمطها وشغلته عن طاعة ربه ، وتباهى وتفاخر بها كان من الأشقياء، كما قال تعالى: ﴿**وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾(١٠)"(١١).

---

(٩) تفسير السعدي (ص: ٧١٢).

(١٠) النمل: ٤٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثالثًا: إن أشد ما يُصرف الإنسان عن عبادة الله تعالى التي خُلق من أجلها الغفلة المؤدية للانغماس في اللهو ومُتع الدنيا الزائفة. وقد جاء القرآن الكريم مُحذراً من ذلك في أكثر من آية؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾(١٢). بل جاء وصفها: ﴿**وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ**﴾(١٣). قال السعدي رحمه الله: "هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان، وأما الآخرة، فإنها ﴿**خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾، في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين الذين يفعلون أوامر

(١١) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٥/ ٤٩٦).

(١٢) الأنعام: ٣٢.

(١٣) الحديد: ٢٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الله، ويتركون نواهيه وزواجره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون، أيّ الدارين أحق بالإيثار"[١٤].

رابعاً: الإسلام دين التوسط والاعتدال؛ فالمذموم من اللهو ما يُصْرِف عن عبادة الله وطاعته باتباع أوامره واجتناب نواهيه، أما اللهو المعتدل الذي لا يصحبه شيء من المعاصي، فهذا مباح بل ندب إليه الإسلام، لموافقته للفطرة، وفيه إعانة على التخفيف من متاعب الحياة ومشاقها، والنشاط على أداء العبادة شريطة عدم تعارضه مع شرائع الإسلام، جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يا حنظلة! ساعة وساعة" ثلاث مرات"[١٥]. قال ابن عثيمين رحمه الله: "يعني ساعة للرب عز وجل، وساعة مع الأهل والأولاد، وساعة للنفس، حتى يعطي الإنسان نفسه راحتها، ويعطي ذوي الحقوق حقوقهم، وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها". والأهم أنه يجب على المسلم التوازن في حياته بين أداء العبادات، وبين اللهو المباح للترويح عن النفس، والالتزام بالقاعدة الشرعية "لا إفراط ولا تفريط"؛ فكم هي مهمة

(١٤) تفسير السعدي (ص: ٢٥٤).

(١٥) صحيح مسلم، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، رقم: ٢٧٥٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومريحة هذه القاعدة عند تطبيقها بفهم وإدراك فيعيش بها الإنسان توازناً دينياً، وفكرياً، وثقافياً، واجتماعياً.

خامساً: إن شكر الله تعالى حق لازم له سبحانه؛ فهو مُسْدِي النعم كلها دِقها وجِلها. والشكر في حقيقة الأمر يعود للشاكر نفسه، فالله سبحانه مستغن عن خلقه وهم الفقراء إليه، قال تعالى: ﴿**وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾[١٦]. قال الطبري رحمه الله: "ومن شَكَر نعمة الله عليه، وفضله عليه، فإنما يشكر طلب نفع نفسه، لأنه ليس ينفع بذلك غير نفسه؛ لأنه لا حاجة لله إلى أحد من خلقه، وإنما دعاهم إلى شكره تعريضاً منه لهم للنفع، لا لاجتلاب منه بشكرهم إياه نفعاً إلى نفسه، ولا دفع ضرّ عنها، ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾، ومن كفر نعمه وإحسانه إليه، وفضله عليه، لنفسه ظلم، وحظَّها بخَس، والله غنيّ عن شكره، لا حاجة به إليه، لا يضرّه كفر من كفر به من خلقه"[١٧].

---

(١٦) النمل: ٤٠.

(١٧) تفسير الطبري (١٩/ ٤٦٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سادساً: من كمال توفيق الله تعالى للعبد أن يُلْهِمَه شكر نعمه، فالكثير من خلقه غافل عن شكره وقليل منهم الشكور، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ**﴾(١٨). قال السعدي رحمه الله: "﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ**﴾، أي: عظيم، كما يدل عليه التنكير ﴿**عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾؛ حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يُوجب عليهم، تمام شكره وذكره، ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ**﴾ بسبب جهلهم وظلمهم، ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**﴾(١٩) الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله، ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه"(٢٠).

سابعاً: الواجب أن يحرص العبد على الدعاء بالحمد والشكر لله والإعانة عليه، جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنه "كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ

---

(١٨) النمل: ٧٣.

(١٩) سبأ: ١٣.

(٢٠) تفسير السعدي (ص: ٧٤١). وانظر بتوسع: مقال للكاتب بعنوان: "وصف القرآن الكريم لحال أكثر الناس بأنهم لا يشكرون"، موقع الألوكة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رَبَّنَا"(٢١). وكان صلى الله عليه وسلم يقول لمعاذ رضي الله عنه: "قُلِ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك"(٢٢). والإنسان مهما بلغ من العناية بشكر الله تعالى، ينبغي أن يستقر في قلبه أنه مُقصر في حق الله تعالى، ومحال أن يبلغ العبد الفقير والضعيف شكر نعم ربه، وهي لا تعد ولا تحصى. وجميل قول التابعي طلق بن حبيب رحمه الله المتوفى سنة (١٠٠ هـ): "إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين"(٢٣).

ثامناً: الآية موضوع المقال تُظهر عدل الله تعالى وحكمته بعباده في الحساب يوم القيامة، فمن غفل عن طاعة ربه عز وجل وقصر في أداء الواجبات وألهاه التكاثر بحطام الدنيا الفانية وأفرط بالتلذذ بمتعها الزائلة، ليس كمثل من اجتهد واعتنى بطاعة ربه تعالى، وحقق التوازن بين مطالب الدنيا وحاجاتها وبين الاستعداد للآخرة، فأعطى كلاً منها ما تستحقه من العناية

---

(٢١) صحيح البخاري، باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه، حديث رقم: ٥٤٥٨.

(٢٢) البخاري، الأدب المفرد، باب: دعوات النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٥٣٤/٦٩٠.

(٢٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٥/ ٦٥).

والاهتمام، فلا إفراط ولا تفريط. وقد نبه القرآن الكريم إلى التوازن المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[٢٤]. قال ابن كثير رحمه الله: "أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا؛ أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقه"[٢٥].

تاسعاً: مطلع سورة التكاثر ومضمونها وخاتمتها بالوعيد بالقسم وتأكيده مؤشر قوي بأهمية محاسبة النفس والاجتهاد في كبح شهواتها، حتى لا تتجاوز الحدود وتعمل ما تشاء دون ضوابط، فمن حاسب نفسه في الدنيا هان عليه حساب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا

---

(٢٤) القصص: ٧٧.

(٢٥) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٢٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تَعْمَلُونَ﴾[٢٦]. قال الشنقيطي رحمه الله: "في هذه الآية الكريمة حث على تقوى الله في الجملة، واقترنت بالحث على النظر والتأمل فيما قدمت كل نفس لغد، وتكرر الأمر فيها بتقوى الله، مما يدل على شدة الاهتمام والعناية بتقوى الله"[٢٧]. وجميل مقولة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا"[٢٨].

(٢٦) الحشر: ١٨.

(٢٧) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٤٩).

(٢٨) أحمد بن حنبل، الزهد، حديث رقم: ٦٣٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جدول المحتويات

مقدمة ٣

(١) تتحقق محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم بالاتباع الصادق لا الابتداع.. ٦

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٧

الملاحم التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٨

(٢) جزاء الشاكرين وثبات المؤمنين ٣٦

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:.................. ٣٧

الملاحم التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:............ ٣٨

(٣) كل شيء زائل والبقاء لله وحده ٤٥

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:.................. ٤٦

الملاحم التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:............ ٤٧

(٤) حسبُك الله... وليًّا ونصيرًا................................... ٦٠

أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:.................. ٦١

الملاحم التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:............ ٦٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٥) فضل الصلح والتحذير من شح النفس ٧٣
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:................. ٧٥
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:........... ٧٦
(٦) الإثم: ظاهره وباطنه في ميزان الحساب..................... ٨٦
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:................. ٨٧
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:........... ٨٩
(٧) الله يفعل ما يشاء بحكمة وعدل............................ ١٠٦
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:............... ١٠٧
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:......... ١٠٨
(٨) لا معين ولا ناصر وقت الشدة إلاّ الله........................ ١١٧
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:............... ١١٨
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:......... ١١٩
(٩) الإضلال بغير علم: وزر مضاعف يوم القيامة................ ١٣٢
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع:............... ١٣٣
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع:......... ١٣٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١٠) عطاء الدنيا للجميع، وعطاء الآخرة للمؤمنين ١٤٦
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ١٤٨
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ١٤٩
(١١) سنّة الله في إحقاق الحق وإزهاق الباطل..................... ١٥٨
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ١٥٨
الملامح التربوية المستنبطة من الآية ممحل الموضوع: ١٦٠
(١٢) اختلاف الطبائع ومسؤولية العمل............................ ١٦٨
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ١٦٩
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ١٧٠
(١٣) الجزاء من جنس العمل وعدل الله المطلق ١٨١
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ١٨٢
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ١٨٣
(١٤) محكمة العدل الإلهية تَفُض النزاع يوم القيامة............... ١٩٢
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ١٩٣
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ١٩٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(١٥) العلم اليقيني يصدر عن خبرة ٢٠٤
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٢٠٥
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٢٠٦
(١٦) الثقة بالله: فله جنود السماوات والأرض.................. ٢١٤
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٢١٥
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٢١٦
(١٧) تقلب الأحوال سنة إلهية جارية.......................... ٢٣٣
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٢٣٥
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٢٣٦
(١٨) قلب المؤمن يُشرق بالأمل والخير دائماً.................. ٢٥١
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٢٥٢
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٢٥٣
(١٩) السعيد من يجعل عمله كله في مرضاة الله.................. ٢٦١
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٢٦٢
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٢٦٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٢٠) لا يعاقب أحداً إلا بذنب ٢٧٤
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٢٧٥
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٢٧٦
(٢١) تزكو النفس بفعل المأمورات وترك المنهيات ٢٨٧
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٢٨٨
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٢٨٨
(٢٢) الرجوع إلى الله ومسؤولية الحساب ٣٠٦
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٣٠٧
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٣٠٨
(٢٣) نعيم الدنيا وسؤال الآخرة ٣٢٤
أقوال العلماء في تفسير الآية محل الموضوع: ٣٢٥
الملامح التربوية المستنبطة من الآية محل الموضوع: ٣٢٦

شبكة الألوكة - قسم الكتب